الثائرون في التاريخ

٤

ابو ذر الغفاري

الثائرون في التاريخ

— الحلقة الرابعة —

تأليف : دار الحكمة

— باشراف —

علي ناصر الدين

أبو ذر الغفاري

دار الحكمة

إهداء

الى الذين - من بين رؤساء الدول
في الوطن العربي الكبير ؛ من
ملوك وغير ملوك ؛ تصطرع في
صدورهم شهوة السلطان المطلق
الغاشم ، وشهوة الثراء ؛ يحققون
بها شهوات حقيرة اخرى ؛
فينحرفون عن الصراط ، ويمعنون
في ارتكاب المنكر ؛ من تجهيل
للشعب وافقار وتجويع وتمزيق
واحتقار ؛ والى الذين - من بين
اهل المعرفة والرأي في هذا الوطن -
تمور نفوسهم بالايمان والرجولة ،
وكبرياء الشرف ؛ وتضطرب في
رؤوسهم فِكَرٌ ضخمة في الحرية
والحق ، وفي عز القومية ، وعز الانسانية
ايضاً ، ويقوون على حمل هذه الفِكَر ؛
أهدي هذه الحلقة من سلسلة « الثائرون في التاريخ »

علي ناصر الدين

مقدّمة

اذا صح ما اشعر به ، واعتقده ، من ان العظمة ـ عظمة الانسان ؛ بالمفهوم المفروض ان يكون للعظمة في اذهان الصفوة الذين يفهمون الانسانية موكباً يسير في نطاق القيم صُعُداً في سلم الكمال الانساني الى القمة ـ ليست مالا ، ولا جاهاً ، ولا ابهة في العيش وفخفخة وفخامة ، ولا عبثاً في القوانين وبالشرائع ايضاً ؛ ولا قدرة على التضليل والخديعة والرياء والنفاق ، ولا سلطاناً يصور الباطل حقا ، والحق باطلا ، ويهتك حرمات الضعفاء وينتهك حرياتهم وحقوقهم ، ويبطش بهم ويخوض في دمائهم وفي جثثهم ، ارواء لغليل واشباعاً لشهوة ؛ اذا صح ذلك ؛ وصح ان العظمة ، انما هي ماهية في الذات متبلورة ، كامنة ؛ تسبب في القلب ، وفي الدماغ ، وفي الدم والعظم والاعصاب . لا فرق ، اكانت هذه الذات ، ـ تعبيراً بلسان المجتمع ، ـ ذات امير ام صعلوك . غني ام فقير . كبير ام صغير . حاكم ام سُوقة ؛ تتفجر في معرفة ، وفي عزم وتصميم ، كلمةَ حق في وجه سلطان جائر ؛ وعمل صدق في سبيل الخير ، خير الفرد وخير الامة ؛ ومضياً على الصراط ، في ثباتٍ وعناد ؛ لوجه الحق والحرية والكرامة والعزة ؛ ليس حرية الفرد

وكرامته وعزته ، حسب ؛ بل حرية الامة وكرامتها وعزتها ؛ حرية الفرد وعزته وكرامته ، أنه انسان ؛ وحرية الامة وكرامتها وعزتها ، أنها جزء من « الكل » الانساني ، ينتظم الناس كلهم ، حيثما وُجد الناس ؛ واذا صح ان القيم الروحية ، نؤمن بها ونحياها فكراً وقولا وعملاً ، مختارين غير ملزمين ، منعتقين بها من اي قيد من قيود المنفعة الشخصية على تعدد وجوهها ، ومن اي قيد من قيود الرغبة ، الا في ذات هذه القيم لذاتها ؛ ومن اي قيد من قيود الرهبة ، او العبرة بما كان ، ومن اي قيد من قيود الخوف مما يكون ، في الحاضر والمستقبل ؛ هي مقياس العظمة ، اذا صح هذا — وانه في نظري لصحيح — فان اخا غِفار ، المغمور حتى الآن ، جندب بن جنادة ، ذلك الانسان العربي الفذ ؛ الصلب الوديع ، العنيد الهادىء ، الثائر المطمئن ، المترفع المتواضع ؛ المعروف بكنيته « ابو ذر » الغفاري ، الذي اطلعته امةُ يعرب منذ ما يقرب من الف واربعماية سنة ، يجيء على الذروة من العظمة ؛ لاجدال .

قد يبدو هذا غريباً لكثير من الناس ؛ ان لم اقل للكثرة الساحقة — وليست بساحقة — من الناس ؛ في كثير من عصور هذه البشرية المترجحة بين الخير والشر ، وبين الحق والباطل ، وبين الحرية والعبودية ، وبين الجمال والقبح ، وبين المعرفة والجهالة ، وبين اليقظة والغفلة .

وبتعبير جامع ؛ بين العظمة والضعة . فالعظمة الحق ، تطوي في جناحيها هذه القيم كلها : الحق والحرية والخير والجمال والمعرفة ؛ او انها هي هذه القيم الفكرية او الروحية بذاتها ؛ وليس في ما يتجاوز نطاقها ، من عظمة على الاطلاق . وما يصوره فساد المجتمع وترديه في رذيلة العُرف والجبن والانتهازية ، المتصلة بعبودية النفس مما يخيل الى الناس انه عظمة ، انما هو « عظمة » هذا الفساد وهذا التردي .. اي « عظمة » يزورها الجهل والدجل والنفاق وذل العبودية ، وغش المقاييس . وقى الله هذه الامة ، زورَ هذه « العظمة » وضعتها ، وحقارتها ؛ فهي وحدها التي تعوقها في نضالها للانعتاق من واقعها المظلم ، الضئيل يضطرب في البلبلة ، والحَيرة ، والسراب .

قلت أن يجيء ابو ذر ، من العظمـــة ، على الذروة ، قد يبدو للناس – ما عدا الصفوة منهم – غريباً ، على مقدار ، في مختلف العصور ، واخص منها هذا العصر ؛ ولكنّ هذا ، هو الصحيح . هذه هي الحقيقة ؛ اذا صح كما افترضنا – وانه لصحيح – ان العظمة الحق هي التي تطوي في جناحيها القيم الروحية ؛ من حرية وحق وخير ومعرفة وجمال ، تحياها – كما سبق وقلنـــا – فكراً وقولاً وعملاً . بل انها – اي العظمة – هي هذه القيم بذاتها ، وليس في ما تجاوز نطاقها ، من عظمة على الاطلاق ...

أبو ذر في الجاهلية

لقد اصطلح العهد الاسلامي منذ بدايته ، ان يسمي كل ما سبق الرسالة العربية الاسلامية من عصور ، « في جزيرة العرب (١) » باسم (الجاهلية) ؛ وكان السائد على الافهام عندنا ، ان الجاهلية ينبغي ان يكون لها مفهوم واحد ، يدل على البدائية الساذجة ، والجهل المطلق . وكان المُعتقد ان العرب في ذلك العهد ، كانوا منعزلين عن العالم ، منطوين على نفوسهم ، يغمرهم جهل مطبق ، وتستبد بهم ظلمة ظلماء ؛ الى ان جاء العلم يثبت بواسطة الآثار المتعددة ، تكشف عنها الحفريات ، في مواضع كثيرة من ارض الجزيرة ؛ في الجنوب وفي الشمال ، فساد هذا المفهوم ؛ وهذا المُعتَقد . فقد دلّت هذه الآثار ، بما فيها من نصوص

«١» نسمي ما عرّفه الجغرافيون من قبل بـ «شبه جزيرة العرب» محددينها بالعراق شمالا ، والاوقيانوس الهندي جنوبا ، والخليج العربي او « كما يقولون الفارسي » شرقاً ، والبحر الاحمر غرباً ؛ «جزيرة العرب » ونعتبر ديار الشام والبادية والعراق جزءاً منها وامتدادا لها . كما يقول المؤرخ العالم المدقق الدكتور جواد علي في كتابه القيم «تاريخ العرب قبل الاسلام » ج ٢ بغداد - ١٩٥٢

على ان ذلك العصر المسمى بـ «الجاهلية» كان فيه علم غير قليل.

وقد غدا يسيراً علينا بعد هذا، ان نستسيغ ما يقوله بعض العلماء والمؤرخين الاسلاميين، من انهم انما يعنون بجهل «الجاهلية» ليس الجهل الذي هو ضد العلم، بل الجهل الذي هو ضد الحلم؛ والجهل بالحقيقة التي عرفها العهد الاسلامي، بواسطة الرسول الاعظم الامين، محمد بن عبدالله، اي حقيقة العلم بوحدانيه الله خالق السماء والارض وما بينهما، العزيز الحكيم.

على ان هذا النوع من الجهل نفسه، كان في «الجاهلية» القريبة من الاسلام، بدأ ينقشع من ظلمته، قسم غير ضئيل؛ وبدأت الآلهة الممثلة في الحجر وفي الخشب، وفي التمر... ايضاً، احياناً؛ هذه الاصنام الجامدة المهينة الميتة، التي - بها قبل اي شيء آخر - سمي ذلك العهد بـ «الجاهلية» تفقد شيئاً من هيبتها في نفوس فئة من العرب، وتغدو ضحكة في نظر فريق من احرار النفوس واهل الفكر فيهم، غير قليل؛ كان ابو ذر في مقدمتهم. مثال ذلك ما تحدثنا به كتب السير والتاريخ مما سنعرض له، من تنادر نفر من الاذكياء واهل الجرأة، بهذه الاصنام، وسخريتهم منها، وشتمهم لها. وكان هذا قبل بضع سنين

من زمن الجاهلية القريبة من الاسلام ، امراً مستحيل الوقوع فان هو وقع ، فالجلد والتعذيب والنفي ، اهون ما كان يصيب المجتريء الساخر ، من لدن رؤساء القبيلة وشيوخها الصنميين ..

وحوالي سنة ٦١٥ م . تقريبا ، اصيبت «جزيرة العرب» في شمالها بجفاف مخيف ؛ فقد طال عنها انحباس المطر ، فشحت المياه ، وكادت تيبس الارض بيبوسة تامة ، في بعض منازل القبائل ، ومنها غفار ، قبيلة «ابي ذر» فقد جف العشب ونضبت الضروع ، وهزلت الانعام ، وهز القبيلة كلها ؛ خوفها العطش والجوع . وكان للقبائل في ذلك الحين ؛ صنم لكل قبيلة ؛ تختصه بالعبادة والتقديس ، وتتجه اليه في زحمة الشدائد والخطوب .

وكان «مناة» الصنم ، الاله المرجى عند «غفار» . فتنادى روساؤها يوماً الى اجتماع يتجهون فيه الى «المهم» مناة هذا ، يتضرعون اليه ان يرأف بهم ، فيرسل على ارضهم الغيث يقيهم وانعامهم خطر الموت عطشاً وجوعاً ، فهو على ذلك قدير ... واجتمعوا وتضرعوا ، ونحروا على اسم هذا الاله ، تقرباً اليه والتماساً لرحمته ، فما بالى «مناة» بهم ، ولا انزل عليهم من الغيث من شيء ... اذن ، فمناة هذا غاضب ، وكان

خوفهم غضب مناة ، مثل خوفهم خطر الموت عطشاً وجوعاً ، ان لم يكن اشد ..

وقال الروساء والشيوخ : ان « مناة » لن يرضى عنا الا ان نحج اليه ، ونطوف به ، وننحر له ، من الامام ومن الوراء وعن اليمين وعن الشمال . وكان « منـاة » هذا منتصباً ، او بالحري منصوباً في مكان غير بعيد من ساحل البحر ، بين مكة والمدينة . ويبعد مسيرة ايام عن منازل غفـار ؛ فاجمع رأيهم على المسير اليه ؛ واندفع يوماً شيوخ « غفار » وروساؤها يستنفرون افراد القبيلة الى الخروج ، فقـامت في الحي كله حركة شغلت كل فرد بنفسه ، عن اهله وذويه ، حتى اذا ما تهيأت الرواحـــل ، وانتظم الركب ، وهمّ بالمسير ، افتقدوا جندب بن جنـــادة ، فلم يروه ، فراح اخوه انيس يبحث عنه ويناديه : جندب .. جندب .. اين انت . وكان جندب مستلقياً في خيمته ، تصل اليه ضوضاء القبيلة فتصطدم باصوات خافتة ، تنبعث من اعماق ذاته ، فتطوي هذه الاصوات ، ـ على خفوتها ـ ، تلك الضوضاء ، فتضمحل في سمعه وفي نفسه ؛ وتستمر الاصوات الخافتة تلح عليه ، فيُسلم اليها قلبه وعقله ، ثم يلتفت بفكره الى

« مناة » اله قبيلته ... هـذا ، وترتسم على شفتيه شبه ابتسامة خفيفة ، تنعكس فيها احساسات مضطربة ، تصطرع في ذاته مزيجاً من ألم وهزء وتمرد واشفاق . ودخل عليه وهو على هذه الحال ، اخوه انيس ، وصاح به ، مستغرباً تخلفه عن ابناء القبيلة ؛ ما بالك لا تزال قاعداً ، الم يبلغ مسمعك صوت المنـادي الى المسير ! قال ابو ذر بلهجته المتميزة بالقوة والهدوء والطمأنينة : بلى . ولكنّ نفسي تعزف عن زيارة « مناة » هذا . وما افهم معنى لهـذه الزيارة ! فدهش اخوه وقال له : ما هـذا الذي تقول ، اسكت . الا تخشى ان ينزل لعنته عليك ، وينتقم منك ؟! قال جندب في تهكم مبطن بتهيب مصطنع . او تظن انه يسمع ؟ ! . . فقال اخوه مغتاظاً وجلاً : مـا بك اليوم يا جندب . هل جننت ! ! قال جندب ، لا . ولكنني كما قلت لك ، ما ارغب في « الحج » الى « مناة »

فازدادت دهشة اخيه ، وتقلّع وجهه ، واخذ يتلفت ذات اليمين وذات اليسار ، أن يكون احد من ابنـاء القبيلة قد سمعه ؛ وقال لجندب : لست بتاركك ، او تقوم فتستغفره ؛ واياك ان تعود الى مثل هذا ، او ان يشعر

احد من القبيلة بالذي في نفسك ، وراح يُلح على جندب ويمعن في الالحاح ؛ حتى استحيا جندب منه ، وقام متبرماً متثاقلاً . ورافق – على كره – اخاه .

وتعمّد انيس ان يحاذي اخاه « ابا ذر » اثناء المسير؛ وقد نستطيع التأكيد انه راح يحدثه عن « منــاة » الاله ، ويصف له قدرته ؛ ورأفته بالعرب ؛ وسطوته . وانه اعاد عليه نصحه ان يتوب اليه ، وان يتورع عن ان يطلق لسانه فيه ؛ والا هلكت القبيلة وانعامها ؛ وقام في اذهان ابنائها ، انه هو السبب في ذلك فتثور به القبيلة وتؤذيه وتنفيه .

وكان ابو ذر يصغي ولا يسمع ... فقد كان مأخوذاً بما يتدافع في نفسه ، من تمرد على هذه الاصنام الجامدة الميتة المهينة ؛ ومن هزء بها وازدراء لها ؛ وهو ، لولا حرمة لأخيه في نفسه ومحبة له ، لما كلف نفسه ان يخطو خطوة واحدة في سبيل « مناة » هذا ، ولا غيره من هذه الاصنام .

وبعد مسيرة ايام ، اشرف الركب على المكان الذي نصب فيه « مناة » فشاع في نفوسهم الحبور والامل ، وبعث مرآه في عزائمهم قوة واندفاعاً ، فحثوا المطايا اليه في عنف،

وما هي الا لحظات حتى كانوا في رحابه ؛ فاناخوا مطيهم ، واقاموا يلتمسون لنفوسهم قليلاً من الراحة بعد عناء السفر ، ولكن فريقاً منهم ؛ ممن كانت نفوسهم مرتعاً للجهل اخصب من نفوس الآخرين ؛ ومضطرباً لظلمة الوثنية اوسع واعمق ، ابوا الا ان يباشروا تواً الطواف بـ « مناة » والتبرك به ، والنحر له ، والاستغفار عن ذنوبهم اليه ؛ فاحال جو الجماعة ، سائر « الحجاج » الى كتلة متراصة متحمسة ، يستبد بها التعبد لـ « مناة » السقط ، هذا ، والتخوف منه ؛ فاندفع الجمع ينحرون الذبائح ويدورون بالصنم ، في استسلام وخشوع ...

كان هناك رجل واحد شق العصا ، وامتنع على جو الجماعة ، فلم ينفعل به . وراح يقلب ناظريه بين الصنم السخرية ، وبين قومه الجاهلين ، تتحكم في نفسه أزمة عنيفة ، من ألم ونقمة ورحمة . فلا هو يرضى لعقله وكرامته ان ينحدر الى هذا الدرك يتخبط فيه قومه ، ولا هو بقادر ، على ان يرتفع بهم الى مستواه ؛ ويجنبهم التمرغ في هذه الحمأة ، من الظلمة والمهانة والاستخذاء ..

ذلك الرجل كان « ابا ذر »

وهبط الليل فطوى الاشياء والاجسام في جناحي ظلمته، طي ظلمة الجهل في جناحيها الكثيفين، نفوس غِفار وعقولها؛ ونفوس اخوات غِفار ايضاً، وعقولها، من القبائل في ذلك العصر؛ فخفتت اصوات، «الحجاج» وساد «حرم» الاله المزوّر «مناة» سكون عميق. وانصرف عباد «مناة» المساكين، الى التماس الراحة لجسومهم، بعد ماناهم من تعَب السفر، وتعب الدوران حول «مناة» شيء كثير. وتحلقوا حلقات، حلقات، اختار منها «ابو ذر» حلقة انضم اليها؛ كانت تجمع بين نفر من الكهول والشيوخ يتسامرون.

حلقة من كهول وشيوخ! ترى ما الذي كان يحمل «اباذر» على ان يختار هذه الحلقة دون سواها من حلقات «الحجاج» السامرين! وهو لم يكن شيخاً يومئذ ولا كهلاً؟ ولا كان من بين الكهول ولا الشيوخ في قبيلته، من يأنس فيه مشاطرته النظرة الى «مناة» وغيره من الاصنام؛ فقد كان يعلم انه وحده في غِفار يكره الوثنية ويكفر بـ «مناة» وغير «مناة»، من هذه الاوثان! ان رجلاً من مثل «ابي ذر» سنرى ما سيكون له من شأن

عظيم ، بعد سنوات غير كثيرة من هذه الليلة ، كان خامس من اسلم ، واول من ثار في الاسلام ، ثورة معرفة ويقين وايمان ، من اجل الحرية والحق والخير ، ومن اجل الاسلام ؛ ان رجلاً عظيماً مثل « ابي ذر » من حقه علينا بل من حق التاريخ نفسه ، ومن حق القيم الروحية التي بها وحدها يستقيم الوجود ، وجوداً انسانياً كريماً ؛ هذه القيم ، التي كان « ابو ذر » مظهراً حياً متبلوراً ناطقاً ضخماً ، من مظاهرها في الوجود العربي ؛ ان نُعنى اشد العناية وادقها بكل ما يصدر عنه ، من عمل او قول او حركة ، مما يتصل باية ناحية من نواحي هذا الوجود في الفكر والعقل والاتجاه ؛ ذلك ان هذه العناية ، هي وحدها التي قد تيسر لنا السبيل الى اكتشاف مكنونات نفسه ، وجوهر معطياته التي تكوّن شخصيته ، وتجعل منه في الدور الاعلى من حياته ، عالماً ينطوي فيه العالم الاكبر ؛ او بتعبير آخر ، وجوداً رفيعاً ينطوي فيه الوجود الانساني الكريم كله . ونحن ، على هذا القياس ، وفي ضوء هذه الحقيقة ، ما نستطيع ان لا نرى في هذه البادرة من اختيار « ابي ذر » لمجلسه ، حلقة بذاتها ، من دون غيرها من حلقات القوم ؛ حلقة الكهول

والشيوخ ، في « حرم » الاله الزائف الجماد « مناة » في تلك الليلة ؛ هذه البادرة ، التي قد تبدو هينة تافهة ، والتي يمر بها بعض الذين يؤرخون لعظماء الثائرين الابطال ، في غير ما انتباه ولا مبالاة ؛ ما نستطيع اقول ، ان لا نرى في هذه البادرة ، دلالة بيّنة ، وتعبيراً عميقاً ، عما يبدو واضحاً في سيرة « ابي ذر » من بعد ، للمتأمل البصير ؛ من غلبة الجد الصارم على طبعه ، والرصانة البالغة على خُلُقه. ذلك بالرغم مما عُرف عنه ، وجعله محبّباً الى النفس ، من دعابة خفيفة مستتره في نفسه ، يرسلها في مناسبات ، كالتي وقعت له مع اخيه انيس ، مثلا ، يوم زجره هذا ، ضناً به ، وخوفاً من غضب « مناة » عليه ، لأنه ابدى شيئاً من الاستخفاف في كلامه على « مناة » معلناً انه لا يحس اية رغبة في زيارة « مناة » هذا ، او الحج اليه ! فاجابه في تهكم غير بادٍ وخشية متصنعة : « أوَ تظن انه يسمعنا ؟!!! ».

قلنا ان « ابا ذر » اختار لمجلسه في تلك الليلة ، حلقة من حلقات « الحجيج » تضم الكهول والشيوخ من قبيلة غفار ؛ ولم يكن غريباً ان يطلق بعض المتسامرين احاديثهم في هذه الاصنام ، الآلهة الخرساء الصماء البكماء التي كانت

ـ رغم ذلك ـ تأخذ على القوم ، كبار وصغاراً ، رجالا ونساء ـ الا من عصم ربك ـ وهم قليل ، نواحي تفكيرهم وسلوكهم ، وتنزلها ظلمة الفكر ، منزلة التقديس والعبادة في نفوسهم . وقد كانت هذه الآلهة كثيرة العدد ، مختلفة الاسماء ، متفاوتة الدرجات ، منصوبة حجارة منحوتة وغير منحوتة ، سوداء وغير سوداء ، هنا وهناك في جزيرة العرب؛ في الشمال وفي الجنوب. فيا لرخص هذه الآلهة وقبحها ومهانتها !؟

وقد تناولت هذه الاحاديث اكثر مـا تناولت ، الاصنام التي تمتعت اكثر من غيرها بالشهرة بين عرب الجزيرة الشماليين ، مثل اللات والعزّى ومناة وهبل وسعد والفلس . وكان « ابو ذر » ساكتاً ساكتاً ، يسمع ولا يتكلم . ومن يدري ، فقد لا نستطيع التأكيد انه كان يسمع . لقد كان مصغياً ؛ او يبدو انه كان كذلك ؛ نعم ؛ ولكن أكان يسمع حقـاً ؟ ! كان « ابو ذر » مـع القوم ، وليس معهم ؛ كان بهيكله الترابي في تلك الحلقة يشغل حيزاً محدداً من ارضها ، تلمسه وتراه ؛ ولـكنّ مثل « ابي ذر » ، في نفسه النقية ، وحسه المرهف ، وعقله النير ، وخيـاله السامي البعيد الصافي ، وفي مثل هذه الليلة التي حشرته بين

تلك البقعة من الارض ، بعدها في ظلمة الليل ، ظلمة في عيني « مناة » الجامدتين ، وفي نفوس جماعة « مناة » هذا ، الصقيع ؛ وبين السماء الصافية ، تمور فيها الانوار وتشع اشعاعاً متمادياً غير منقطع ، يستحيل ان لا تشغل نفسه وعقله وفكره ، فكرةُ مبدع هذه السماء ، رب هذه الانوار ، فتغمر وجوده كله ، وترتفع به الى حيز نوراني ، يستبد به ويذهله عن اي شيء على الاطلاق ، غير سماع صوت عميق ، صوت واحد ، يجلجل في صدره ، في اعماق وجوده ، فيسمع في هذا الصوت صوتَ مبدع الارض والسماء : صوت ربه .

ومن كانت هذه حاله ، فليس غريباً ان يعزف نفسه عن سماع ثرثرة وثنيين ، مهما يكن من شأنهم ؛ في هبل واللات والعزّى ومناة وغيرها من هذه الاوثان المضحكة المهينة ؛ وهو ليس منهم ، ولا هم منه في شيء – عدا لحمة النسب – الا ان تنطلق نبرة متحدث ما ، من بينهم ، فتصك سمعه ، بنغمة كفر ، بهذه الاصنام ، او ارتياب بها ، او سخرية منها ؛ مما ينشرح له صدر « ابي ذر » ويطمئن اليه قلبه . وهذا ما وقع فعلاً .

كان من بين اصنام العرب في ذلك الحين ، واحد ،

يُعرف باسم « سعـد » وقع لاحد الاعراب معه قصة ؟ وكان احد رجال حلقة « ابي ذر » يروي لرفاقه ، هذه القصة ، في شيء من خفوت الصوت ، ومن الهزء المبطن ، الى ان قال : وجاء الاعرابي بطائفة من ابله يسعى في نمائها ببركة « سعـد » فما ان ابصرت الأبل سعداً ، حتى نفرت منه ، وتفرقت ممزقة في كل وجه ؛ فغاظ الامر الاعرابي وآلمه ؛ فشتم سعداً ورماه بحجر ...

قالها ، وسكت يتفحص وجوه اصحابه ... وكأنما هذا الحجر اصاب وجه « ابي ذر » بالذات ، فانتفض وحوّل نظره عن السماء ، الى ما بين يديه من الارض ، وقال في نبرة وغبطة : أوَ فعل ! قال المتحدث ، واكثر من ذلك .. انه سبّ سعداً سبّاً مقذعاً ، ووصفه بانه ليس الا صخرة صماء لا ترى ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع !

قال احد افراد الحلقة : وماذا حدث للاعرابي ؟ فاجابه في بساطة ، وشيء من البرودة والخبث : لا شيء .

وساد الحلقة لحظةً ، شيء من الصمت : وكشفت النار الموقدة في وسط الحلقة ، عما بدا على الوجوه ، من انعكاس لاحساسات افرادها ، بعد الذي سمعوه ؛ فاذا واحد منهم

على وجهه ظل من صفرة، يقول في شيء من خوف : لقد كفر ! قال « ابو ذر » في رصانة وعزم، ونورانية بادية : وما عليه ان يكفر بهذه الصخرات ! ألست في الواقع كما قال ! فبعث الحديث شيئاً من الشك في صدور السامرين، بهذه « الصخرات »، وايقظ كلام « ابي ذر »، في نفوسهم اموراً.. وسرت في اعصابهم رعشة من تحرر ومن شجاعة، فارتفع صوت احدهم يقول :

هل اتاكم خبر عدي بن حاتم ؟ قالوا : لا. وما خبر عدي بن حاتم ؟!

قال الرجل، انه كفر بالاصنام جميعها، وتنصر.

فسأل « ابو ذر » في اهتمام، وكيف كان ذلك. قال ان « الفلس«١» »، و(هذا صنم زنيم، اله مزور آخر) جاء سادنه يوماً، فساق ناقة لامرأة من كلب، اناخها بين يدي « الفلس » هذا، وكانت المرأة جارة للفارس المعروف مالك ابن كلثوم ؛ فذهبت اليه واخبرته خبر السادن والناقة ؛ فركب مالك فرسه وتناول رمحه، وخرج يطلب سادن « الفلس » فادركه امام الصنم، ومعه الناقة، فقال له : خل

«١» الفلس هو من اصنام طي

سبيل الناقة . فلم يرد عليه . قال مالك : خلّ سبيل ناقة جارتي ، قلت لك . فقال السادن انها « للفلس » ربك والهك . فصوب مالك الرمح الى صدره ؛ ففك عقالها ؛ فرجع بها مالك الى صاحبتها ، والسادن يتميز غيظاً ويستعدي « ربه والهه » على مالك . وكان عدي بن حاتم ، ومعه نفر من اصحابه جاؤا لزيارة « الفلس » ، يسمعون ويشهدون . فقال عدي ، « انظروا ما يصيب مالكا في يومه هذا » ! ولم يُصب مالكاً من شيء في يومه ذاك ؛ ولا في ما جاء عليه من ايام بعد ذلك . فكفر عدي بالاصنام ؛ وتنصر ..

ووجم رفاق « الحلقة » ... واستبدت بهم حيرة ، بدا من آثارها على ملامحهم .

اما « ابو ذر » فقد اشرق وجهه ، اشراق نفسه ، بنور السماء ، واحسّ برد اليقين والطمأنينة يسيب زاخراً صافياً في صميم كيانه .

***

لعلنا لا نخطيء ، اذا نحن قررنا ، ان « ابا ذر » كان من ناحية اخرى ، نهباً لآلام نفسية عميقة ، أن جاء مع بني غفار ، يستعدون « مناة » على الطبيعة ؛ يصرّفها ، في ما

ينزل المطر على ارضهم ، وهم لا يختلف شأنهم في مثل هذه الحال ، عن شأن سادن « الفلس » هـذا الذي يستعدي « الفلس » على مالك بن كلثوم ؛ « والفلس » الاله الزائف هذا ، مثله « مناة » صنم صخرة ، - لعله لو انه ليس صخرة ، وانه يحس ويعقل - ، كان ضحك من سادنه ، وامثال سادنه من هؤلاء الذين اعمت الجهالة بصائرهم ، ونزلت بهم الى هذا الحضيض ، يمرغون فيه انسانيتهم .

وانفرطت حلقات السامرين ؛ وراحوا ، يختار كل واحد منهم مضطَجَعاً له ، اقرب ما يكون من « مناة » ؛ وبقي ابو ذر في مكانه ، لا يتحرك . حتى اذا ما جاء الهزيع الثاني من الليل ، وكان القوم كلهم نياماً ، قام « ابو ذر » في عزم وتؤدة ، واتجه نحو « مناة » حتى اذا ما حاذاه ، لطمه بحجر لطمة شديدة ، ثم خاطبه قائلا : « انك صخرة صماء لا ترى ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع . فعلام يُتقرب اليك وتُعبد . ويح قومي انهم لفي ضلال من امرهم مبين .. »

وعاد « ابو ذر » الى مكانه ، فاضطجع ساكن النفس مطمئن القلب ، ونام نوماً هادئاً عميقاً .

ومــا ان تنفس الصبح ، حتى سرت في القـوم حركة للرحيل ؛ واندفعوا قبل ذلك يطوفون بـ « مناة » ، حتى الذين حدثوا مساء امس احاديث الارتيــاب بالاصنام ، والهزء ، والكفر ؛ الا « ابا ذر » الذي راح يرقب جمعهم ، في الم وغضب واشفاق . ثم انفتـل الى راحلته فامتطاها ، والقوم - الا اقلهم - في شغل عنه بـ « ربهم مناة » ؛ واخوه انيس يتلفت اليه من بعيد ، ويتساءل عما يمكن ان يكون من امره . وما ان انتهوا من الطواف بصنمهم ، الاله الصخرة ، حتى امتطوا رواحلهم ، وساروا في طريق العودة الى منازلهم ؛ واقبـل انيس على اخيه « ابي ذر » يتفرس في وجهه ، ويحاول استشفاف مـا في نفسه ، بعد هذه الزيارة لـ « مناة » ، ومـا وقع في الزيارة من قول ومن عمل ، ضد « مناة » هذا ، وغيره من الاصنام . ولكن « ابا ذر » لم يلتفت الى اخيه ؛ فقد كان في نفسه ما يشغله عنه ، وعن القافلة كلها ؛ كان يفكر تفكيراً عميقاً في كل ما رأى وما سمع ؛ وكان تفكيره يستبد به فيأخذ عليه نواحي عقله ونفسه ، ويمد له في آفـاق المستقبل القريب والبعيد ، فيسأل نفسه : ماذا عسى ان يكون من امره ومن امر هذه

الوثنية والاوثان ، في قبيلته غفار ، وفي سائر انحاء هذه الجزيرة العربية؛ - التي كان يحبها كلها ، ويتمنى لها الهداية والخير كلها ؛ - بعد ان كفر بالاصنام كفراً تاماً ، وغمر اليقين عقله وفكره وضميره ؛ بان هذه الاصنام وما اليها في هذا الكون من اشياء ؛ مثل غيرها مما يبدو للعين او يتصوره الفكر والخيال من ارض ومن سماء ، بمن وما عليها وفيها ، انما هو كله مخلوق ، لا بد له من خالق . وبقي على هذه الحال ، لا يجسر احد من القافلة ان يكلمه ، ولا هو يكلم احداً ، الى ان بلغت القافلة منازل القبيلة ؛ وانفرط عقد الركب ، فآوى « ابو ذر » الى مخدعه واضطجع على فراشه ، وراح يتسامى بفكره وروحه ، الى خالق السموات والارضين ، ساكن النفس مطمئن القلب ، فقد انفتحت له ابواب السماء ، وحبته من لدنها بدفقات من نور الحق والهدى والايمان . لقد انتهى الامر او كاد .

انه انتهى من حيث ان « ابا ذر » اصدر حكمه المبرم بشأن الاصنام ، فكان مقطع الحق . وآمن بان هناك الهاً ، هو الذي خلق كل شيء ؛ وهو وحده الذي يجب ان يُعبد ، فما من معبود الا هو ؛ ولكن ما السبيل الى عبادته

العبادة الحق ، والى معرفة ما تفرضه هذه العبادة الحق ، على العابد المؤمن الصالح ؟

هذا السؤال يسأله « ابو ذر » نفسه ، هو الذي ارّقه ليلته تلك ؛ وقد آلم نفسه ، انه لم يستطع ان يجد لسؤاله جواباً محدداً ، يقوم لديه ، سُنة بعينها ، يستن بها ، ويطمئن اليها ؛ على انه ما كاد يأنس حبات من ضياء الفجر ، تنثرها السماء هنا وهناك ، حتى وثب من مضجعه ، وركع على ركبتيه ، وبسط يديه الى فوق ، متطلعاً الى السماء ؛ وراح في نشوة من محبة واطمئنان ، يناجي ربه ، في صوت متطامن حنون اخّاذ ، ويضرع اليه ان لا يتخلى عنه وان يهديه سواء السبيل . ولمحه ، وهو على هذه الحال ، اخوه انيس ، فبعثت هذه اللمحة في خلده ، سيلاً من الروعة والتهيب ، ووقف ينظر اليه مشدوهاً لا يبدي ولا يعيد ؛ بعد ان كان همّ في مخاطبته وأحجم . على انه استجمع قواه اخيراً وناداه : ابا ذر ! ولكن « ابا ذر » لم يسمع ؛ او انه سمع ولمْ يعِ . فكرر اخوه النداء : ابا ذر ، ما الذي اراك تفعله : فانفتل « ابو ذر » الى اخيه وقال : انني اصلي . قال اخوه ولمن تصلي ؟ قال : لله .

فقال اخوه الا تعلم ان الصلاة لا تجوز الا بين يدي «مناة» وا « مناة » . فاوجعه ضلال اخيه ، وقال له : انا لا اصلّي ا « مُناة » ولا لغيره من مثله . ان « مناة » صخرة صماء ؛ مثل اية صخرة من هذه الصخرات المبعثرة هنا وهناك . الا ان اناساً مثلكم اعملوا فيها ايديهم فغدت على هذا الشكل الصنمي البغيض التافه . وانا اصلي لله ، لله وحده ، ربك وربي ورب « مناة » . وخالقك وخالقي وخالق « مناة » . خالق الارض والسماء .

قال انيس اتصلي لاله لا تراه ؟ فاجابه ابو ذر اذا كنت لا اراه فهو يراني ، واني ارى في كل ما ارى ، دليلاً على وجوده . وأحسّه في قرارة ضميري ، وفي اعماق وجودي ، واني لأضرع اليه ، ان يقشع الظلمة عن قلبك وعن عقلك فتبصره بعقلك وقلبك ، وتهتدي ، كما اهتديت .

مكة قبيل ظهور النبي

كانت مكة في تلك الايام ، عاصمة تجارية ذات شأن كبير ، لتجارة واسعة تتناول شبكتها جزيرة العرب كلها بما فيها العراق والشام ؛ وتتجاوزها الى السواحل الهندية وشواطىء افريقية الشرقية ، وغيرها من البلدان . وكان الحكم في مكة ، تمارسه فئة من كبار التجار ، على نسق يشبه الى حد بعيد ، نسق حكومات الجمهوريات الايطالية في العصور الوسطى . وهكذا كان عنصران رئيسان : الحكم والمال ؛ من العناصر التي تمكن للقدرة والسيطرة ؛ بين ايدي فئة محدودة ، من ارباب التجارة الضخمة في مكة ؛ يستثمر افرادها الاشياء ، والاشخاص ، والحوادث ، استثماراً ثقيلاً عاتياً منظماً ، يشطر البلد الى شطرين ، لشدّ ما كان الفرق بينهما خطيراً عميقاً مثيراً : شطر ضئيل ينعم بالثراء الفاحش والسلطان المطلق ، وشطر كبير جداً ، يشقى بالفقر المدقع ؛ وذل العوز والاستخذاء . فكان ان غدت مكة مجتمعاً ، يضطرب كله ، في العبودية ؛ على

تباين في نوع العبودية وشكلها . ذلك ان العبودية التي كان يفرضها الحكام السادة المطلقو العنان ، على الفريق المحكومين المعوزين الجاهلين ؛ فتجعل منهم ، بحكم العوز والجهل ، عبيداً لهم ، او شبه عبيد ؛ كان هؤلاء الحكام السادة انفسهم ، ينفعلون بها نفسانياً ، على شكل آخر ، ولكنها عبودية على كل حال . فقد كان هؤلاء السادة الحكام ، عبيداً لاطماعهم ، وعبيداً لشهواتهم . وعبيداً لاصنامهم ، التي قد يكون من بينهم ، من بات يكفر بها ويحتقرها ؛ ولكنه يتظاهر بالايمان بها وتقديسها ؛ ويدعو العرب الى ان يؤمنوا بها ويقدسوها ؛ لما في نفوسهم من خبث ، ومن صغار ، او قل من عبودية للشهوات ، من مثل شهوة المال وشهوة اللحم وشهوة الدم ؛ يضمن لهم تحقيقها ، ولذة التمرغ في حمأتها ، استمرار هذه الاصنام على قداستها في نفوس القوم . واستمرار كهذا ؛ يقتضي له ، حكما ؛ بقاء القوم في ظلمة الفكر والعقل والروح ؛ ليبقوا ، اكثر ما يمكن ان يبقوا ، عبيداً ... للعبيد ...

من هنا ، كانت مكة ، كما قلنا ؛ بالعبيد فيها والاسياد ؛ مجتمعاً استعبادياً – ان صح التعبير – تستعبد فيه الاطماع

الترابية والشهوات الحقيرة ، الحكام ، السادة على السواد ، ويستعبد هؤلاء ، بدورهم ، السواد من المجتمع المكي ، الغارقين في الظلمة ، ظلمة الفكر والعقل والروح ، ادهى الظلمات . وافتك الظلمات . .

ومن هنا ، كان خوف اهل الثراء والسلطان ، حكام مكة وسادتها ، انبلاج الفجر ، يتحول الى ذعر ، يكاد يبعث فيهم الجنون ؛ كلما هم آنسوا بسمة نور في افق الوجود المكي المدلهم ، تبشر بانبلاج هذا الفجر ، في النفوس ، او باحتمال انبلاجه في القريب . والفجر منبلج لا جدال .

وكان المجتمع المكي ، في الواقع ، رغم هذا كله ، وقد يصح القول ، بل لهذا كله ، — اذ ان الظلمة كانت قد بلغت الى حد ، اعجزها عدم الفراغ عن الامتداد — اخذ يُحس سريان نور الفجر الضئيل هذا ، في هدوء ورفق ، الى فكره وعقله ؛ كما يحس الناقه سريان العافية الى شرايينه واعصابه . ذلك ان فتى من قريش في مكة ؛ ومن سادتها الانجاد المفضلين ، اسمه محمد بن عبد الله . كان قد غمره — لخير الانسانية — نور من السماء ، افاضه الله على كيانه ، وهو في غار ، اسمه حراء ، في جبل من جبال مكة ، ينشد من خلال عظمة هذا الكون ، الذي كانت عظمته

قد ملأت نفسه ، وشغلت عقـله ، وحررت فكره ؛ وجهَ مبدع هذا الكون العجيب . وجهَ الله . فاذا هو يتجلى له في دفقات ذلك النور ، بعظمته وجـلاله ، حتى كأنما هو يراه في ابدية الازل وازلية الابد ؛ فيخر صقعاً على وجهه يتنداه العرق ؛ ثم ما يلبث ان يبسط كفيه الى اعلى ، ويغرس نظره في السماء ؛ يسأل الله العون والثبات والرحمة .

ويروح الفتى الصادق الامين – وهكذا كان يسميه قومه – يسكب من هذا النور ، ومن هذه المعرفة في نفوس عشيرته الاقربين ، فتتسامع قريش خبره ، ويتأودها امره ، وتثور ثائرة السادة الحكام في مكـة ؛ أن قـام في مكة ، من يدعو الى تحطيم الاصنام . ويسبح باسم الله « الرحمن » !

ماذا ؟ ! أهناك اله غير هذه الآلهة التي نعبدها واباؤنا من قبل ! وآله واحد ، لا نراه ! من دون آلهتـنا هذه التي تفيض علينا الخير والبركات !! وكاد السادة الكبار من قريش يجنون . وراحوا يشغبون على محمد ، ويفترون عليه الافتراآت ، ويطلقون فيه الاقاويل والاشاعات . ويحذرون الناس منه ، ويحاولون ايقاع الاذى به . ومحمد بين يدي ربه يعلمه الحكمة ، ويلقنه معجز الآيات ، ويعد له في الرسالة

الحق ، الى قومه والى العالمين . وكان من البديهي ان تضطرب مكة في هذا الشأن ، بمختلف التفاسير والميول والنزعات . وان تستأثر بها الحيرة ، وتعصف بصدور اهلها شتى الاحاسيس والتفاعلات ، وان يتناقل الركبان ، بعد ، خبر هذا كله ، في ارجاء الحجاز ، فتتسامع به القبائل فتأخذها الدهشة وتلعب بالبابها الاحلام والتصورات ! ..

فكذا كان الوضع في مكة ، يوم جاءها « ابو ذر » يستقصي خبر (الرجل الذي جعل من الالهة الهاً واحداً) ودعا العرب الى الكف عن عبادة الاصنام . والى الايمان بهذا الاله الواحد الاحد . يأمرهم بالمعروف وينهاهم عن المنكر ، ويبذر في نفوسهم بذور الحب والرحمة وبذور الحرية والحق والخير . وملء روحه ، هو الذي كان قد كفر بالاصنام ، ان يكون هذا الذي سمعه واقعاً حقاً وصدقاً ، ليدخل في دين هذا « الرجل » ويمارس في هديه وعلى سنته ، عبادة الله .

أبو ذر في مكة

في يوم عربي من ايام الربيع ، الذي يرفع من بهجته ، ومن قيمته في النفوس ، انه ربيع تحيط بنابت ازاهيره المنورة ، بواد وقفار ؛ كان ابو ذر واخوه انيس جالسين في باحة امام منزلها بين منازل القبيلة ، يتحدثان في ما كان يترامى الى قبيلتهما « غِفار » مما يترامى الى غيرها ايضاً من القبائل ، من اخبار مكة ، والحادث الجلل الذي هزها هزاً عنيفاً ، وأقضّ مضاجع سادات قريش فيها ، واهل الثراء والحكم خاصة ، من ابنائها . وفيما هما كذلك ، اذا اعرابي يقبل عليهما ، تبدو عليه سمات سفر طويل ، فسلم وجلس ، غير متكلف ولا متوان .. فرحب به « ابو ذر » وسأله من اين ؟ قال الاعرابي : من مكة . فهش له « ابو ذر » واقبل بكليته عليه ، يسأله : وما حال مكة ؟ فاجاب الرجل ، وفي جوابه بقية من حيرة ومن عجب ، مما سمع في مكة ورأى ، قال : لقد ظهر فيها رجل يدعي النبوة ، ويقول انه رسول الله الى قومه العرب ، والى

الناس اجمعين !! وانه يُوحى اليه من لدن السماء، بالكف عن عبادة الاصنام ، فانها ليست من الالوهية ولا من القدسية في شيء ، وانها ليست سوى حجـارة من خلق ربه الذي يوحي اليه . وانها مثل كل حجارة ، لا ترى ولا تسمع ولا تضر ولا تنفع ! وهو يدعو النـــاس الى عبادة اله واحد : الله . خالق السموات والارض ومـا بينهما . كما يدعو الى الحق والخير . كما سمعت بعض الناس يقولون !

قال « ابو ذر » – وقد طابت نفسه بما يسمع ، وشاع في وجهه نور سماوي ادهش الرجل – وما كان من شأن قريش معه ؟ قال وما تريد ان يكون شأنهم معه ، وقد حقر آلهتهم واتهمهم بالضلالة والعمه ، هم وآباءهم ومن قبلهم ، ممن تعبّد لهذه الآلهة ؟ انهم كذبوه . واتهموه بالشعوذة ، وبالجنون ...

وشقّ على « ابي ذر » ان يكون موقف قريش ، هذا الموقف ، من رجل يدعو الى الحق والخير والمحبة والرحمة : الى الله . وتمنى لو انه كان في مكة ، ليمشي بين يدي هذا الرجل وينصره على خصومه واعدائه . واعترته حالة

من تأمل وذهول ، طال فيها امعـانه ؛ وزادت حالته هذه ، في دهشة الرجل الاعرابي وحيرته ، ولم يجرؤ على سؤاله عن امره ؛ فسلم وانصرف ...

واقبل « ابو ذر » بوجهه على اخيه ، متفرساً فاحصاً ، ثم طلب اليه ان ينطلق الى مكة تواً ، فيجيئه بالخبر اليقين عن محمد وصحبه ؛ وعن قريش وساداتها المتكبرين العتاة ، الذين يقاومون محمداً ويؤلبون عليه الاغنياء وذوي النفوذ في مكة . فاعد اخوه العدة للسفر من يومه ، وما اصبح الا وقـــد ركب مطيته ، وانطلق الى مكة ، حتى اذا بلغها ، يمم الكعبة فطاف بها ؛ ثم راح ينظر في امره ، وما ينبغي له من تدابير ؛ يتخذها للاختلاط بالنـــاس ، وتقصي اخبار محمد من مختلف فئـــاتهم . فاذا هو يسمع ضوضاء ، ويرى جمعاً من الناس مقبلين ؛ يسيرون ويقفون ؛ ويتقدمون ويتأخرون ؛ فاسرع الى رجل ، كان اول من داناه منهم ، وسأله ما الخبر ، فاجابه هـــذا بقوله : انه الصابيء ، يدعو الناس الى دين جديد ، يزعم انه يأتيه من السماء . فسرت في نفس انيس اخي «ابي ذر» رعشة ، وقال: لقد وقعت على ما اطلب . ونفذ الى وسط الجماعة ، فاذا

هو يسمع رجلاً يقول : اللهم عونك ورحمتك . اللهم أشهد ان لا اله الا انت . وحـــدك . لا شريك لك . واذا صوت يرتفع من بين الجمع يقول :

كذبت !

فقال الرجل : اللهم انك تعلم انني ما كذبت قط . ولا اكذب . اللهم ان قريش نفسها تعلم انني صادق امين . وفوجىء انيس بلمعة من نور تنحدر الى اعماق نفسه وقال : هذا هو ! ووقف يستمع الى ما يلقيه هذا الرجل على الجمع من كلمات ربه ، وهو مأخوذ بما يسمع ؛ الى ان اخذ الناس يتفرقون ، فيقول واحدهم انه كاهن ! ويقول الآخر انه شاعر ! ويزعم غيره انه ساحر ، وما ابعد ما كان محمـد عن الكهانة والسحر والشعر . وما اغلظ ما كانت قلوب هؤلاء الناس ، واعمق ما كانت الظلمـة في هذه القلوب ! الا من هداه الله وهم ، بعد ، قليل .

واكتفى انيس بالذي رأى وسمع ، فاسرع الى راحلته ؛ وحمل راحلته على الاسراع به ، تطوي الارض كما كان يشاء ان تطويها ، كأنما هي احست عمق رغبته في الوصول بأقصى سرعة المطيّ ، الى منازل « غفار » ليبشر اخـاه

« ابا ذر » بالذي كان يترقبه من صدق حدسه ، وتحقيق فكرته . وكان صوت النبي وهو يلقي على الناس في مكة ، ما لقنته السماء من معجز الآيات ، تتدفق حكمة وحلاوة وعذوبة وسموا وجلالا ، ما تزال نغمته تسيب في جوارحه مع دمه ، فتزيد في حرارة الرغبة بنفسه في سرعة الوصول الى « غفار » حتى اذا ما اشرف على المنازل مرق براحلته كالسهم ليقع امام منزله ، حيث كان « ابو ذر » ينتظره ، انتظار المظلم بارقة الفجر .

واقبل انيس على اخيه ، يبدو في وجهه بشر ، وتطل من عينيه فرحة ، فتلقاه « ابو ذر » بحرارة وطمأنينة ، وعاجله بالسؤال : ما وراءك . قل وافصح واسهب . قال انيس لقد لقيت الرجل . وسمعته يكلم الناس . ويدعوهم الى التصديق به رسولاً من « الله » بدين جديد . ولكن كلامه لا يشبه كلام احد ممن عرفت من النـــاس . ولا كلامك حينما تريد ان تقنعني ان « مناة » وغيره من الاصنام انما هي حجارة مثل غيرها من الحجارة . وهل ان حجرا يرى ويسمع او يضر وينفع ، ويتخذه عاقل الها يُعبد ! انه يكلم الناس بكلام يقول انه من عند الذي خلق الحجارة

والناس والكون كله . وهو ؛ هو وحده خالق الارض والسموات وما بينهما . ويسميه : الله ، ويخاطبه بـ « اللهم أشهد ان لا اله الا انت وحدك لا شريك لك . »

قال « ابو ذر » وما يقول فيه اهل مكة ؟ قال : يقولون انه كاهن وشاعر وساحر ، ولكنني قلت لك ان الذي سمعته منه ، ليس من كلام الكهان ولا السحرة ولا الشعراء . وما ادري ما هو .

قال ابو ذر أما حفظت شيئاً من كلامه ؛ ومما يقول انه كلام من عند الله ؟ قال : لا . قال « ابو ذر » لم ترو ظمأ نفسي . واني لذاهب الى مكة منذ الساعة أو تعينني على ذلك . قال لك ما تريد . واحذر اولئك القوم على نفسك . وامتطى « ابو ذر » راحلته وراح يجدّ السير الى مكة .

ارأيت الى السرعة التي كان يعن فيها انيس اخو « ابي ذر » في عودته من مكة الى « غفار » ليطلع اخاه « ابا ذر » على ما وعى ؛ مما سمع ورأى ، في مكة من خبر النبي ، وقريش ؟! ان سرعة « ابي ذر » الى مكة يروي فيها ظمأ نفسه ، كانت اشد واعظم ، فقطع المسافة

من منازل غفار الى مكة ، في برهة ، مـا كانت لتستقيم لسواه .

***

دخل ابو ذر مكة ، والناس فيها ، يسعون في اعمالهم ومشاغلهم ، لا يلوون على وافد ، ولا يعبأون براحل ، الا ان يكون بائعاً او مبتاعاً ؛ وما كان «ابو ذر» من هؤلاء ؛ فلم يحفل به احد من النـــاس . ولم يشق هذا على «ابي ذر» بل لعله رأى فيه ما يمكّن له في التوفيق الى تحسس ما قدم على مكة من اجله : اخبـــار النبي . واخبار قريش . وراح يتجول في اسواق المدينة واحيائها ودروبها ، يستمع الى الناس باذني رأسه واذني قلبه . حتى اذا ما هبط الليل ، وكان قد اعيـــاه التجول ، انتبذ له مكانا حـــول الكعبة اضطجع فيه يلتمس لنفسه شيئاً من الراحة ، في النوم ، ولكنه لم ينم . ومرّ به ، اتفاقاً المسلم الاول بين فتيان قريش ، علي بن ابي طالب ، فالفـاه ساهراً قلقاً ، وكلمه فعرف انه غريب عن مكة ؛ فدعاه الى منزله فاستجاب له ، فسارا معاً يسودهما صمت عميق . وقضى «ابو ذر» ليلته تلك ، في مـــنزل علي ، لا يسأل

علياً شيئاً ولا يكلمه علي في شيء . وما ان طلع الفجر حتى غادر ابو ذر المنزل ، وراح يستقصي – كما فعل امس – اخبـــار النبي من احاديث الناس وفلتـات السنتهم ، في اسواق مكة ودروبها واحيائها ، وحول بيتها العتيق ؛ فلم يوفق الى ما كان يريد . وانهكه عنـد المساء ، التعب ، فذهب الى مكانه الذي اختاره امس ؛ فاذا علي يمر به ، ويُلفيه على حاله الليلة البارحة فيقول له : الم يجد الغريب ما هو في سبيل البحث عنه . قال : لا . قال علي الا تأوي معي الى منزل امس . قال بلى . ورافقه الى منزله . وفي هذه الليلة ايضاً ، لم يفضِ « ابو ذر » الى علي بشيء من مكنونات صدره ، ولم يرَ علي ، العربي الكريم الاصيل ؛ والمسلم المؤمن الخيّر ، ان يحرج الضيف « الغريب » فيستطلعه طِلعَ امره . وما ان اطلت من الفجر خيوطـه البيض ، حتى غادر ابو ذر – كما فعل امس – مـــنزل علي ، وانطلق يبحث ويستقصي ، كما فعل في نهاريه الماضيين ؛ ولكنه لم يكن يسأل احداً عن النبي ؛ ولا يسمع من احد يخوض في خبره ، او يتحدث عنه ؛ كأنما سادة قريش ، فرضوا على قريش ، اغفال ذكر محمد ، وأوكلوا الى عيون لهم ،

التجسس على الناس ، لا يذكره احد ؛ الا وعذبوه .
ولكن الناس في مكة من قريش وغير قريش ، اذا هم ، احتاطوا لنفوسهم ، فلم يتحدثوا في محمد ، في الاسواق وفي الدروب ، خوفَ بطش السادة الحاكمين من قريش ، ومن اهل النفوذ فيهم ، فقد كان محمد ملء اسماعهم وابصارهم ، وشاغل عقولهم ونفوسهم ، يقضون لياليهم - ولكن داخل منازلهم - في الكلام عليه ، والتحدث في خطر دعوته ، واعداد ما يوسع لهم في مقاومته ، والتخلص بما قد تجره عليهم هذه الدعوة من تحطيم لاصنامهم . و ... سيادتهم .
وكان مقابل ذلك ، فريق من قريش انفسهم ، قليل ، يذكرون محمداً في ليلهم وفي نهارهم - .داخل منازلهم - ويعطفون على دعوته ، ويرون فيها ما ليس يستطيعون ان يدفعوه بحجة ؛ لما في الدعوة من منطق ، ومن حق ، ومن خير ، ومن سمو ، ولكنهم لم يكونوا قد آمنوا بعد .
وكان الى جانب هؤلاء من آمن بنبوة محمد ورسالته ايمانا صادقا ؛ وهم نفر لم يكن عددهم يومذاك تجاوز اربعة انفس ، في مقدمتهم : علي .
عاد « ابو ذر » في مساء نهاره الثالث ، في عناد وطمأنينة

الى مكانه الذي عرفناه في جوار الكعبة ، وفي نفسه انه لن يغادر مكة ، مهما يكن من امر ، الا ان يلقى النبي او – على الاقل – من يشبع نفسه وعقله من خبره ، وصدق نبوته ، فقد كان يحس في اعماق ذاته انه لن يرجع الى قبيلته « غفار » ، الا وهو مفعم النفس والعقل ، بالدين الجديد ، يحمل اليهم الثوريًا : نوراً وهديا ، ونظاما للحياة جديداً ، يخلق من كل فرد فيهم ، انسانا جديداً .

ومرّ علي بالرجل في مساء يومه الثالث فاذا هو يلقاه على حاله في المساء الاول ، فيأخذ بيده هذه المرة ويقول له في شيء كثير من العناية والرأفة :

الا تنبئني بشأنك ايها الرجل ؟ ! من انت وما الذي تبتغيه في هذا البلد ؟ فتفرس « ابو ذر » في وجه علي ، وقال له في لهجة تقطر بالحنان والثقة والطمأنينة : الا نذهب الى منزلك الليلة ايضا ؟ فانشرح لسؤاله هذا ، ولهجته ، صدرُ علي ، وذهب به الى منزله ، يغلب عليه امل ، في حقيقة هذا الرجل ، باسمٌ حلو . وتملأ نواحي نفسه وفكره ، موجة من تفاؤل به ، لا يدرك من بواعثها ما يمكّن له في القدرة على القطع بشأنه ؛ ولكنه يحسُ ان في اعماقها

الخير ... وما ان دخلا منزل علي حتى قال له هذا : والآن ... هل قررت ان تُفضي اليّ بحقيقة امرك ! قال نعم . على ان تعاهدني على ان تبلغني بغيتي ، اذا انت استطعت ؛ او تكتم عليّ . قال علي لقد عاهدتك على ذلك . فانبسطت اسارير « ابي ذر » وقال : انا جندب بن جنادة من غفار ، وكنيتي « ابو ذر » . سمعت في منازل « غفار » ان في هذا البلد رجلا يجهر باحتقاره للاصنام . وانه يدعو الى عبادة اله واحد خالق الكون . والى التحرر من قيود الجهالة والعبودية والاستغلال . وانه يحدد للمعروف مفهوماً جديداً ويأمر به . ويحدد للمنكر مفهوماً جديداً وينهي عنه . وان المعروف في مفهومه ، هو المعروف عقلا وحقاً . وان المنكر في مفهومه ايضاً ، هو المنكر عقلا وفعلا . وليس معروف قريش ومنكرها ، تواضعت عليها ، ومعها غيرها من العرب ، في معرفة او في غير معرفة ، من اجل تأمين مصالحها وسيادتها وحكمها ! وسمعت ان هذا الرجل يقول انه يوحى اليه من السماء : ان لا اله الا الله . وان في ما يردده من كلام يقول انه من عند الله ؛ ما ليس في كلام الناس من مثله ، من

ورروحانية وبلاغـة ، واشراق . وكنت قد كفرت بهذه الاصنام ، والتمع في عقلي وفي قلبي بارق من نور ، يخيّل الي انني اسمع في تموجاته هاتفاً يهتف من اعماق ذاتي ان لهذا الكون ، بارضه وسمائه وانسانه وحيوانه ، وكل ما ظهر فيه وما بطن ، خالقاً ؛ هـو وحده الذي يجب ان يُعبد ، ولكنني اعجز عن معرفة السبيـل السوي الى عبادته ، والطريقة المستقيمة لاكتناه مشيئته وغايته .

وقد بعثتُ اخي الى مكة يستطلع لي طلع امر هذا الرجل ، وبت انتظره كما ينتظر قبيلُ يتوقع الهلاكَ ظمأً وجوعاً ، رائدهم ؛ فعاد ولم يفعل شيئاً . فاوجعني ذلك فحزمت امري على المجيء الى هذا البلد بنفسي ، لعلّي القى ذلك الرجل ، فينير سبيلي ويأخذ الى الصراط ، بيدي . وقد مر عليّ ثلاثة ايام انشد ما ابتغي ، وما فعلت شيئاً . هذه هي حقيقة امري نفضتها بين يديك ، بعد ان وثقت بك ، واطمأننت الى ما تحدث به اسارير وجهـك ، من خير ، في نفسك .

وكان علي يستمع الى ابي ذر ، ووجهه يتهلل بنور ما كان يسري في جوارحه كلها ، من غبطة . ومن فرحة .

ومن اعجاب بما يسمع .

وتناول علي يد « ابي ذر » وقال : هيّا معي الى النبي ؛ فقد كنت في سبيلي اليه ساعة لقيتك هذا المساء . وانت ترى انك قد اخرتني ... قالها وهو يبتسم ؛ فشاع في نفس « ابي ذر » شعور بسعادة علوية انعكست على وجهه الاسمر ؛ المحبب الى القلب ، نوراً يتلألأ في نعومة واطمئنان ، مثل ما يتلألأ وجه صبيح لطفل ينعم بالعافية ، في غفوة هادئة هانئة ؛ كان « ابو ذر » يقول عنها ، انها سعادة ، لم تنسه اياها ، سعادةُ دخوله في الاسلام . وان سعادته في اسلامه ، كانت امتدادا لها ، غير منقطع .

***

وانطلق الرجلان معاً ، حتى اذا ما قاربا ان يصلا الى حيث كان النبي . قال علي سانقدمك قليلا وتتبعني من قريب فاطرق الباب ، وحينما يُفتح تنضم اليّ ، وندخل معاً .

وجخل الرجلان الصالحان ، فحيّا « ابو ذر » النبي ، بقوله : السلام عليكم . (١)

«١» في كتاب « ابو ذر الغفاري » لعبد الحميد جودة السحار : ان هذا السلام هو اول سلام القي في الاسلام .

قال النبي : وعليكم السلام ورحمة الله ؛ ممّن انت ؟

قال « ابو ذر » : انا من غِفار . واسمي جندب بن جنادة واكنى بـ « ابو ذرّ » .

وراع « ابا ذر » ما احسّه في اعمـــاق ذاتـــه من جـــلال النبي ، وعظمـــة ُخلقـــه ؛ وروحـــانية كلامه ؛ وشجعه مـا انس عنده من حلاوة حديثه ومن ترحيب به ، على ان يطلب اليه ، ان يعرض عليه الاسلام . فقال النبي : الاسلام ان تشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله .

فقالها ابو ذر في ايمان وطلاقة ، وفي نشوة من لذة روحية بادية : اشهد ان لا اله الا الله وأشهد ان محمداً رسول الله . فقال النبي ، ـ وقد لمس ما يعتلج في نفس هذا الرجل من حرارة ايمان واندفـاع ـ اكتم الامر يا ابا ذر الى ان تعود الى اهلك ، ويبلغك خبر ظهورنا . فانني اخشى قريشاً عليك . قالها رأفة منه بابي ذر وتجنيباً له ما قد تنزله قريش به من اذى وضر .

ولكن ابا ذر ؛ وقد جاءه اليقين كاملاً ، ولفّه الايمان بانواره الصافية ؛ وبعث في نفسه حديثُ النبي مابعثه من اعتزاز

بالله وشغف بالحق ، وعزة في النفس وشجاعة في القلب ، ما ارتفع به عن عيب الخوف والمداراة ؛ اجاب النبي في حرارة وحماسة واطمئنان ، بقوله : « اشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله . » ـ ارسلها ، والذي بعثك بالحق ، صرخة مدوية تهتزلها جبال مكة وشعابها . وارضها وسماؤها ، وتضعضع سادات قريش الذين كذبوك ؛ وانت الصادق الامين ، ورسول الله اليهم ؛ والى العالمين . وانطلق تواً الى الكعبة ؛ واخذ ينادي : يا معشر قريش ؛ اشهد أن لا اله الا الله ، واشهد ان محمدا رسول الله !

وأن يثيرهذا النداء عنجهية قريش وغيظها ، كان امراً لاريب فيه؛ فتزاحمت جماعات منهم على «تأديب» ابي ذر والانتقام منه ، وانهالوا عليه لطماً وضرباً في قسوة وحشية ؛ وهو يردد : اشهد ان لا اله الا الله واشهد ان محمداً رسول الله . واذا العباس عم النبي مقبل على الكعبة ، فآلمه ما شهد ؛ وراح يدفع الناس عن ابي ذر ، ثم اكبّ عليه وهو يقول : ويحكم ماذا تفعلون ! أتقتلون الرجل وطريقكم بقوافلكم التاجرة ، على غفار ، ذاهبين آيبين ! فانكفأوا عنه ، واستقام ابو ذر بقامته الطويلة النحيفة ، فاذا دمه يسيل على

وجهه ، وعلى صدره ؛ فانطلق غير آبه الى حيث الماء في زمزم ، فشرب وغسل وجهه ورأسه ؛ وقصد الى حيث كان النبي ، فجلس في حضرته ، وكان عنده ابو بكر ، يتحدثان في الدين الجديد . وما ان استقر بابي ذر المقام حتى استدناه النبي منه فدنا ، فوضع يده على رأسه ، وقال له . ما هذا الذي بك ! فارتعش ابو ذر ، وسرت في روحه وفي جسمه رجفة عميقة ، تسيب في نعومة وفي رفق ، فيخيل اليه معها كأنما هو يرتفع عن الارض ، ويسبح في جو من نور ، تغمره سعادة ، تجل عن قدرة الكلمة ، على بلوغ الغاية في رسمها للبصائر والابصار ؛ ويجيب ابو ذر بقوله : ليس بشيء يا رسول الله . فقال له النبي الم اقل لك انني اخشى قريشاً عليك !

ولكن « اباذر » بات لا يخشى على نفسه قريشاً ، ولا غير قريش . انه لا يخشى الا الله . وليس في ما يجهر به من ايمانه بالله وبرسوله ، ما يؤآخذه به الله ورسوله . اذن كيف يخشى او ينثني ؛ مهما يكن من شأن قريش ، ومن شأن ما تنزله به من اذى ومن ضيم . وما ان اصبح ، حتى انطلق الى الكعبة ، واخذ ينادي يا معشر قريش : انني

اشهد ان لا آله الا الله ، واشهد ان محمداً رسول الله . فالتف حوله جمهور كبير ؛ وقبل ان تنوشه الايدي ، استطاع ان يُرسل هذه الصرخة : ان النور يا معشر قريش لا يؤذي الا الرُمْدَ . افتكونون كلكم رُمْداً ! وما ان قالها حتى اطبق عليه القوم وكادوا يقتلونه . واقبل العباس فانقذه منهم ، وراح يطيب خاطره ويواسيه ؛ ويحذر قريشاً عاقبة بغيها ويقول : الم اقل لكم انه من « غفار » . وانكم ما لكم من معدى عن المرور بـ « غفار » في رحلاتكم التجارية الى الشام ، ومنها الى مكة ، تنشدون الثراء ، تمكنون به لنفوسكم في السيادة وفي الحكم وفي الجاه . ام ان طغيانكم بالنعمة تكبُراً وجهلا ، سد عليكم منافذ التبصر ، فلا تعقلون مصالحكم ، ولا تدركون . ففعلت قولة العباس هذه في نفوسهم - وقد افزعهم ما قد يصيبهم من اذى في مصدر من اكبر مصادر ثروتهم - فعل السحر . فتراخت عزائمهم وهمدت فورة غضبتهم . .

وانصرف ابو ذر الى النبي ساكن النفس ، مطمئن البال ، مفعم القلب والعقل ؛ بانوار السعادة العلوية التي خاض فيها منذ ان مسح النبي بيده الكريمة على رأسه ، مساء امس ؛

انصرف الى النبي ، يقبس منه نوراً وعلماً ، وسماحة ، وهداية ، وعظمة ، وحلماً ؛ ويهيء نفسه لوداعه ، وحمل ما قد يحمّله اياه الى قومه ؛ من وصاياه وتعاليمه .

* * *

لعله من العجيب — وقد لا يكون عجيباً — ان لا يجد العباس ، عم النبي ، وسيلة لتفريق الجمع من قريش ، عن « ابي ذر » وانقاذه منهم ، افضل من تنبيههم الى ما قد يجره عليهم ايذاؤهم الرجل ، من خسارة في تجارتهم ، ونقص في اموالهم ؛ وهو من « غفار » ، وطريقهم على « غفار » في السعي الى انماء هذه التجارة وتثمير هذه الاموال . فكأن العباس كان من قريش في دخائل نفسها ، وفي صميم موضع التفكير والتقدير فيها . كأن قريشاً في ذلك العهد ، ماكان يعنيها ان يُبعث ، أو لا يُبعث من لدن السماء رجل يدعو الى تحطيم الاصنام ، والى الايمان بان هناك خالقاً خلق الارض والسماء وما بينهما ، هو الله الاحد الصمد ؛ ولا ان يقوم رجل كأبي ذر ، او غير « ابي ذر » فيجهر بتصديقه هذا الرجل ، ويرفع صوته فيهم بقوله : اشهد ان لا اله الا الله واشهد انه (محمد) رسول الله ؛ بل لعلها

كانت اول من يحاول تحطيم هذه الاصنام والنطق بالشهادتين اذا هي استيقنت ان هذا كله ، لا يمس مصالحها بضرر ، ولا يقلل من ثرائها من شيء ، ولا ينزع من بين ايديها السلطان الغاشم ، تستغل به الضعفاء والفقراء ، وتضحك بواسطته عن طريق هذه الاصنام ، من الجهلة والجبناء . فكل الذي كان يهمها ، ثروة وسلطان ؛ يوفران لها الاستمتاع بالملذات ، ويمكنان لها في الارض ؛ تستغل اكبر عدد ممكن من بني الانسان .

* * *

تلقى النبي « ابا ذر » بابتسامة تقطر بالرضى والحب والعطف . واقبل عليه ابو ذر في حب واكبار ، وخشوع ؛ يلتمس هديا الى هديه ، ومعرفة الى معرفته . فاجلسه النبي بين يديه ، واخذ يعلمه ما ينبغي له ان يتعلم ، من الدين الجديد . الدين الحق ؛ في وداعة وجلال ويقين . ويلقنه ان الله سبحانه وتعالى ، الازلي الابدي الكامل ؛ يريدنا على ان نأخذ باسباب التقرب من الكمال ، لنقرب منه ؛ ففي ذلك وحده ، ما يقشع الظلمة عن العقول والنفوس ، ويهدي الى التحرر من عبودية الانسان للانسان . فالانسان حر ،

ما كان لاحد ان يستعبده اياً كان ؛ فكيف يُستعبد لوثن.

ومن اسباب التقرب الى الكمال ؛ الى الله ؛ اقامة الحق في عباد الله ، فلا يظلم قوي ضعيفاً ، ولا يستغل غني فقيراً ، ولا يزدري حاكم محكوماً ؛ فالنـــاس كلهم في عيني الله سواء ؛ لا يتميزون الا بالخلق الكريم والعمل الصالح .

وان الدين الجديد هذا ؛ دين الحق ؛ يُعنى بشؤون الدنيا ، عنايته بشؤون الآخرة . فهو يريد ان يقضي على العادات السخيفة ، والتقاليد المزرية الضارة ؛ وان ينقذ الناس من هذه الوهدة المظلمة ؛ من المخازي والمنـكرات ، التي يتخبطون فيها ، ليرتفع بهم الى مساقط النور ، يعيشون في رحابها ، عيش الكرامة ، يفـكرون ويعملون ، في معرفة وحرية ونقاء ، وينطلقون في آفاقها ، مبشرين بالحق والخير والمحبة ؛ يتظاهرون على محو الظلم والفساد والشر والبغضاء ؛ ويتسابقون في حلبات الهداية والفضيلة ومكارم الاخلاق .

لا جهل في الاسلام . ولا ظلم ولا استعباد ولا استغلال ولا كراهيـة ولا ذل ولا رياء ولا نفـاق ولا تجبّر ولا شرك . لا عبادة في الاسلام الا لله . ولا خوف الا من الله .

وكان « ابو ذر » يسمع الى النبي ، ليس باذنيه حسب ،

بل بعينيه ايضاً ، وقلبه وعقله .

والآن قم يا « ابا ذر » وانطلق ، مكلوءاً بعناية الله الى قومك ؛ احمل لهم هذه الرسالة ، وادعهم بالحسنى والقدوة الصالحة الى الاسلام ، لعلهم يهتدون ، فيكتب الله لك اجر هدايتهم ، ويحشرك مع الذين آمنوا واتقوا ، وعملوا الصالحات .

ونهض « ابو ذر » فودع النبي ، وقد جرى الايمان بالله في دمه ، فخالط قلبه وعقله وفكره ؛ وصار يحس وجوده ، وجوده كله ، ايماناً حيا قائماً بالله ، وعظمة الله ، ورحمة الله ، وعدل الله ، وحكمة الله . وانطلق مأخوذا بعظمة محمد ومهابته ، وحلاوة حديثه وروعته ، وسموه ؛ الى « غفار » اهله وعشيرته ، وهو يود لو انه يستطيع الوصول اليهم بسرعة الفكر ، لينفخ فيهم من ايمانه ، ومن فرحته ، ومن سعادته .

ووصل « ابو ذر » الى منازل قومه ، فتلقاه اول من تلقاه اخوه انيس ، فرحاً به ، مستبشراً بطلعته ، يتدفق منها نور الايمان والحبور والسعادة . وسأله : ما الذي صنعت في مكة ! قال « ابو ذر » وما الذي تريد ان اصنع !

لقد صدقت واسلمت وآمنت . انه الدين الحق يا انيس . دين الرحمة والعدل والخير . أو'لا تصدق ، وتفعل كما فعلت فتسلم وتؤمن ! وتشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله . اني ادعوك الى الحق والخير والمحبة والعدل والكرامة ؛ فاطرق انيس ، منفعلا بايمان اخيه وصدقه ، وانفتل بفكره الى مكة ، يستعيد في ذهنه ، ما كان سمعه من حديث محمد وحلاوته وسموه ، ومن كلام كان يلقيه على الناس ، وهو ليس في شيء من كلام الناس ، ويقول انه من عند ربه ، ذلك الكلام العلوي الخيّر الرائع البليغ الذي كان وصفه لاخيه ابي ذر من قبل ، بدون ان يستطيع ان ينقل منه ، اليه شيئاً ؛ ثم رفع رأسه الى « ابي ذر » وقال : لقد صدقت واشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله .

وشاعت في عيني « ابي ذر » وفي اسارير وجهه كله لمعات من نور ؛ الله وحده يعلم مبلغ ما غمرت عليه من سكينة نفس ، وطمأنينة قلب ، ومن غبطة وسرور . واخذ بيد اخيه وقال ، هيا نعرض الامر على امنا فتنعم مثلنا بنعمة الايمان بالله . وذهبا معاً الى امهما ، فسعدت برؤية ابنها « ابي ذر » واحاطته بذراعيها تلثمه شوقاً وعطفاً وحناناً

وفي مزدحم عواطف الامومـــة والبنوة ، ومزدحم انوار الايمان بالحق والخير والرحمة ، صدقت الام وأسلمت . فلقنها « ابو ذر » نص الشهادتين ، فرفعت صوتها تقول : اشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله .

أبو ذر في الاسلام

لينعم الاسلام بالاً . وليطمئن صاحبه ، رسول الله ومصطفاه ، نفساً ؛ فالذين سيكونون عظماء الاسلام ، ومثبتي اركانه وحملة انواره من بعده ، قد اسلموا وآمنوا . وسيكون الاسلام كما شاء الله له ، ورسوله ، مُنبَجساً للحق والخير والمعرفة والهداية . وصراطاً للانسانية مستقيماً ؛ يذهب بها ، في الدنيا وفي الآخرة ، الى جنات من نعيم ؛ تمور بالعدل والعزة والكرامة والمحبة والرحمة والهناء ؛ ومكارم الاخلاق ، ما فهم روحَ الاسلام ، وعمل بها ، الفريقُ القائد الحاكم الموجّه في الاسلام . لينعم الاسلام بالاً .

فقد اسلم علي . ودخل الايمان قلبه
واسلم ابو بكر. ودخل الايمان قلبه
واسلم عمر . ودخل الايمان قلبه
وها هوذا ابو ذر يسلم ويدخل الايمان قلبه

وما انسى (بلال) (١) فقد كان رابع من اسلم من الرجال وكان « ابو ذر » خامس الخمسة المسلمين المؤمنين الاول .

اي ان (بلال) سبق « ابا ذر » الى الاسلام . ولم يسبقه اليه ، الا ابو بكر وعلي وعمر ؛ العباقرة الانسانيون العظام الافذاذ ، واذا كان لم يبلغ من شأن (بلال) ان يسمو فوق حدود الزمان والمكان ، الى المنزلة التي سما اليها ابوبكر وعلي وعمر ، في الحكم والقيادة والتوجيه ؛ وفي صنع تاريخ للعرب وللانسانية ، بالاسلام ؛ ما تزال صفحاته تشع انواراً ؛ لو عقلنا ؛ لانتفعنا بان نستضيء باشعتها ؛ في ظلمتنا اليوم ؛ اي بعد ما يقرب من اربعة عشر قرناً مرت على انبثاق

---

(١) في الترتيب الزمني لدخول المسلمين الخمسة الاول في الاسلام شيء من الخلاف . فمن قائل بان عليا اول المسلمين . وان زيد بن حارثة اسلم قبل ابي بكر ، وان جعفر الطيار اسلم قبل زيد بن حارثة . وهناك قول ان ابا بكر اسلم قبلهما . وان « بلال » اسلم قبل ابي ذر واذا نحن لم نهمل النساء فيجب ان نشير الى ان خديجة كانت اول من اسلم . على ان في « سفينة البحار » ان عليا اسلم حتى قبل خديجة ، وما نستطيع ان نقطع بقول دون اخر . ولا نحب ذلك . ولا نرى من حاجة بنا كعرب وكمسلمين ، اليه . فنحن نقدم ابا ذر الى العرب كثائر عربي . واول ثائر في الاسلام .

النور في الرسالة الاسلامية العربية من لدن الله ؛ فليس في هذا هنات؛ ومن ذا الذي استطاع في التاريخ العربي ان يسمو الى المنزلة التي سما اليها هؤلاء العباقرة ، او ان يشرف على هذه المنزلة من قريب او من بعيد ؛ الا ان يكون عمر بن عبد العزيز وحده ! اما ابو ذر الذي كانت حياته ، في الفكر والقول والعمل ؛ تحقيقاً دقيقاً لجوهر القيم التي جاءت بها الرسالة الاسلامية العربية ؛ وامتداداً لنور هذه الرسالة العلوية العظيمة الخالدة ؛ فقد سما - في نطاق المعنى الثوري ، والمفهوم الحق للثورة الخيّرة - هو الآخر ؛ الى فوق حدود الزمان والمكان ؛ وسترى شاهد ذلك وتفصيله في ما يلي من صفحات هذا الكتاب ؛ على معرفة مني ، بانني اسبر غور نفس ، ندرت النفوس التي تتصف مثلها بالرحابة والعمق والرفعة، والضبط والصلابة والنقاء؛ سكب فيها الله من نوره ما يجعلها ابداً ، على اتصال بنور السموات والارض : الله . وان هذا القلم مهما يؤت من حظ في التوفيق الى ان لا يُغمس الاّ في النور ، فهو اعجز من ان يقوى على ارتشاف مثل هذا النور ، كما يريد ، ليشعه في الاظفار والبصائر ؛ كما يُريد .

* * *

بات ابو ذر ليلته تلك جذلاً ، مطمئن القلب ؛ فقد اهتدى به عربيان ، اسلما وآمنا : اخوه وامه . فما يمنع غيرهما من ذوي قرباه ، والادنين من قبيلته وغيرهم ؛ ان يسلموا ويؤمنوا ! فليدع قومه اذن الى الاسلام . هذا ابسط ما يفرضه عليه ايمانه بالله وحبه لله ، وما يفرضه ايمانه بمحمد وحبه لمحمد ، رسول الله وحبيب الله . وهو ايضاً ما يفرضه عليه حبه لقومه . وغيرته عليهم ورأفته بهم . ذلك انه اذا دعاهم ، الى ان يدخلوا في ما دخل فيه هو نفسه ، فانما هو يدعوهم الى الحرية والحق والخير ؛ والى مكارم الاخلاق.

وما ان احسّ ابو ذر الصبح ، يتنفس ، حتى نهض وقد وطّد نفسه على دعوة قومه الى الاسلام ، دعوة صارخة غير منقطعة ، الى ان يدخلوا في هذا الدين . وكان يعلم انهم تعودوا الاصطباح عند خفاف بن رخصة ، سيد غفار ، فقصد اليهم ، فاذا هم يصطبحون ويتحدثون ؛ فجلس بينهم يسمع ولا يتكلم ، يترقب اللحظة السانحة ليلقي عليهم خبر النبي ، ويدعوهم الى التصديق به والايمان برسالته ؛ وما ان بدت له تلك اللحظة حتى بادههم بقوله :

– لقد رأيت الرجل في مكة – أتعلمون انني عائد من

مكة . الرجل النبي ، الذي يدعو الى عبادة الله ؛ خالق هذا الكون . ورب السماء والارض و ... فقاطعه احدهم قائلا : نبي ! ويدّعي ان لهذا الكون رباً غير اللات والعزى وهبل ومناة ! فاجابه ابو ذر ان هذه كلها ، يقول عنها ، انها حجارة صماء . لاحسّ فيها ولا سمع ولا بصر . وانها مثل غيرها من الحجارة لا تضر ولا تنفع . فقال آخر ، وفي لهجته شيء من الدهشة ومن الغضب : مـاذا ؟ وانت ، أتقول قوله ؟ قال ابو ذر : نعم . انهـا لكذلك . من غير شك . وسترون . فقال ثالث لقد ضل ابو ذر وكفر .

ورفع ابو ذر صوته في لهجة حازمة مطمئنة قائلا . ما ضلّ ابو ذر . وانما الذين يتعبدون لهذه الاوثان الخرساء الباردة المهينة ، هم الضالون . واما اني كفرت بالـلات والعزى وهبل ومناة واخواتها فنعم ؛ وقد فعلت من قبل ان القى النبي ؛ وكنت ابحث عن السبيـل الذي اهتدي به الى الله ، فهداني اليه النبي الذي احدثكم عنه ، عبد الله وحده ، ورسوله . وفي اللحظة نفسها التي شهدت فيها ان « لا اله الا الله وان محمـداً رسول الله » شعرت كأنما انا خُلقت خلقاً جديداً . وانني دخلت في وجود جديـد

كريم ؛ تمتليء روحي فيه بالنور والخير والحب والامل ، والرجاء في انسانية خالدة ، تصطفق بالنور والخير والحق متحررة من العبودية المخزية المضحكة لهذه الاصنام المخزية بذاتها ، هي الاخرى ، والمضحكة ، و...

وقاطعت ابا ذر اصوات يموج فيها الغضب وتخالطها نغمة التهديد ؛ أن سب آلهة القوم وحقرها ، بهذا الشكل المقذع الصريح ؛ وهذا الهدوء واللامبالاة ؛ يدلان على التعمد والتصميم . ولكن ابا ذر الذي كفر بهذه الآلهة الزائفة العاجزة الجاهلة ، وآمن بالله واحد الله الاحد الصمد الذي لم يلد ولم يولد ولم يكن له كفواً احد ؛ ابا ذر الذي لم يبق لما يسميه الناس « خوفاً » من مدلول او مفهوم في عقله وقلبه ؛ الا ان يكون الخوف من الله ؛ صوّب الى الجماعة ماراً بها كلها ؛ بصره الحاد ، تشع فيه انوار القوة والايمان ، والحب والشفقة معاً ؛ وقال : هدئوا من اعصابكم فليس في ما تصخبون ، من خير لكم ولا من شر لي . واسمعوا احدثكم كيف لمست عجز الاصنام ، ومهانتها ، وكيف نشأت في عقلي ، فكرة الانطلاق في البحث عن خالق هذا الكون ، الذي يستحيل ان يكون وُجد

هكذا عفواً وعبثاً ؛ اسمعوا وعُوا . فعادت الجماعة الى الاصطخاب والتهديد ، ولكن في شيء من التؤدة والفتور ؛ فاسكتهم خفاف سيد القبيلة ، قائلاً : دعوا جندب يفرغ من قصته ؛ ولنسمع اليه فعلى مَ تخشونه !. انكم تدّعون حب الحق ؛ ولن نعجز عن ادراك الحق اذا نحن فكرنا في تعقل وتبصر وروية ؛ فان الحق ابلج صدّاع .

وساد القوم صمت وسكون ؛ واشرأبت الاعناق الى جندب ، واستقرت عليه الانظار ؛ كأنما تريد ان تقول له ان يمضي في كلامه ؛ ومضى جندب في كلامه ، قال : ذهبت يوماً الى زيارة « نهم [1] » اتبرك به ؛ ومعي قربة فيها لبن ، وضعتها بين يديه تقرباً اليه ، وابتغاء لمرضاته ؛ وفتلت وجهي منصرفاً عنه ؛ وانا احسب انني صنعت خيراً . وما ادري ما الذي حملني على الالتفات اليه ، فاذا مشهد يعقد لساني ويكاد يصعقني ؛ ذلك انني رأيت كلباً يشرب اللبن الذي قدمته للآله !.. والاله هذا ، يمعن في الوجوم والجمود ، لا يصنع شيئاً ، ولا يحس شيئاً . وظللت انظر اليه حتى صدمني ما هو ادهى من ذلك واعجب ! فقد رأيت الكلب

«١» « نهم » هذا ، صنم من اصنام غفار

بعد ان فرغ من شرب « اللبن المقدس ! » يرفع رجله ويبول على « نهم » الاله المعبود ... القوي العزيز ذي السلطان !!.. فعل الكلب فعلته بطمأنينة بالغة ، وما ادري فقد يكون فعلها ايضاً ، بازدراء ..

وُذهل الجمع ... واطرقوا ، كأن على رؤوسهم الطير ! وساد المكان سكون عميق رهيب . وبات جندب على مفترق طريقين لا ثالث لهما ؛ من ظلمة .ومن نور ؛ من امتداد لمهانة الوثنية ، يلفه مع قومه ـ هذا ان هم ابقوا عليه ـ في خزي وصغار ، ويطويه طي الارض البهائم ، فاذا هي كأنما لم تكن ؛ ومن وقف لهذه الوثنية وانهيار ؛ يسطع على اثره تواً ، فجر عبادة الله الحق . ويُولد في ضيائه عهد جديد لكرامة الانسان .

ولمع امام بصيرة ابي ذر ، بارق من امل ، في هداية قومه ، يبدو له في جو هذا السكون ، وهذا الذهول ؛ فاستقوى بذلك ، لدفعهم في الطريق الذي يريد ؛ طريق النور والعبادة الحق ، والوجود الانساني الكريم . فرفع صوته يقول : ارأيتم كيف تتململ نفوسكم تأبياً للمهانة ! وكيف تتفتح عقولكم فتروا ما انتم فيه من ضلالة وجهل ؛ يتمثلانه

في هذه الوثنية المظلمة الخرساء المهينة . وتوجه ببصره صوب السماء وقال : اللهم اني كنت ارجي قومي ؛ وارتقب انصياعهم الى الحق ؛ وتلبيتهم نداء من ينادي مؤمناً مخلصاً الى الايمان بك ، والدخول في رضاك .

وشق جو السكون صوت يقول : في تشوق وفي تردد يا جندب ، ما ادراك ان هذا النبي صادق ؟ !

قال جندب في هدوء وسماح ... وفي حزم ويقين : هل علمت ان قريشاً شق عليها ان محمداً يدعو الى الانصراف عن عبادة الاصنام ! وانه يدعو الى عبادة خالق الكون بمن وما فيه : الله الذي لا اله الا هو وحده لا شريك له . وانها لذلك ، شغبت عليه ، وآذته ، وحرضت اهل مكة على ان لا يصدقوه ! وهل علمت ان قريشاً هذه ؛ يسأل السائل عما ينكرونه على محمد ، فلا ينكرون عليه من شيء . وان قريشاً هذه بسادتها وكبرائها - وهؤلاء هم رأس الداء - يلقبون محمداً منذ ان كان فتى : بـ « الامين والصادق » ، أن لم يعرفوا عليه كذباً قط . وهل تعلم ان انساناً ما في مكة كلها ؛ اياً كان ؛ يسمع نفراً يتكلمون فتجري على السنتهم كلمة « الامين » ، فيفهم انهم انما

يعنون محمداً بذاته ، محمداً بن عبد الله ؛ النبي الذي يخاصمونه ويشغبون عليه ، ليس لشيء ، سوى ان في ما يدعو اليه قضاءً على سلطانهم الغاشم ؛ يستعبدون به الناس ؛ وانقشاعاً لظلمة الجهل ، التي تمكن لقريش العاتية القاسية من سلطانها هذا في نفوس المستضعفين والفقراء ، وتمد لها في ، استغلال الاشخاص والحوادث والاشياء . ولان في ما يدعو اليه انطلاقاً من مستنقع العبودية ، والرذيلة ، والظلم والفقر الى اجواء الحرية والحق والفضيلة وكرامة العيش ، والى اجواء العدل والمحبة والرحمة ، والانتفاع المشترك في موارد الحياة . هل تعلم هذا ! وكيف تريد بعد هذا ان لا يكون محمد ، النبي ، صادقاً ومؤمناً بالذي يقول ويفعل ؛ ومخلصاً لله ، في ما يدعو اليه قومه ، رسالة من لدن الله ، رحمة بقومه ، والناس اجمعين على السواء !

فوالله لو انكم ترون النبي يطفح وجهه نوراً ومهابة وجلالاً ، وتسمعونه يتدفق في كلامه حكمة وحباً ورفقاً وبلاغة وسمواً ؛ لتسابقتم اليه تسابق الفراش على النور ، وتسابق الهيم على العذب القراح ؛ تشهدون ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله .

وكأنما مرت في جو المكان ، من هينمة النفوس التي امتلكها ابو ذر بسحر ايمانه ، نغمة خافتة ناعمة عذبة ، فينطلق من اعماقها صوت سيد غفار خِفاف بن رخصة : حسبك ؛ جندب الخير ؛ ها انذا اؤمن . اؤمن بالذي تؤمن به ؛ واشهد ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله .

ليس في قدرة القلم ؛ اي قلم ؛ ان يوفي على الغاية ، في وصف الفرحة واللذة والطمأنينة ، التي مشت في نفس ابي ذر ؛ وما ادري ؛ أغفل التاريخ العربي عن ان يدوّن للتاريخ الانساني ، ان ابا ذر بكى في تلك اللحظة ! ام ان ابا ذر ليس مثل غيره من الرجال فهو يأبى قلبه ؛ تنبعث منه الدموع ، سواء من الحزن او من الفرح ، الا ان يردها الى قلبه ؛ فلا تنحدر على خديه ، مثل سائر الناس !! وهكذا راح التاريخ جاهلاً ان ابا ذر بكى في تلك اللحظة ؛ ما ادري !!

على ان التاريخ يدري ان خفافاً بن رخصة ، كان سيداً حقاً – في ذلك اليوم على الاقل – فقد تبعه الجمع ؛ يُسلم كل واحد منهم ، ويشهد : ان لا اله الا الله وان محمداً رسول الله . ويدري التاريخ ايضاً ان غفاراً – الا

اقـّلها - باتت ليلتها تلك في حضن الاسلام .

بين غفار ويثرب

ما ان اطل نور الفجر ، على منازل غفار ، حتى نهض ابو ذر فصلى ؛ ثم انطلق يدعو المؤمنين ، ليعلمهم الصلاة . وشعر في تلك اللحظة اكثر من اي وقت آخر ، بخطر المهمة التي كان القاها النبي على كتفيه ، يوم جاء ليودعه في مكة ، عائداً الى منازل قومه ؛ اذ قال له : « احمل عني الى قومك هذه الرسالة لعل الله يهديهم الى الحق على يديك . » فجاءته الذكرى بقوة جديدة ، تضيفها الى ما يمور في نفسه من قوة راسخة متأصلة تمكن له في السعي لنشر دين الحق والمعرفة والعدل والرحمة . فراح يعلم المؤمنين الصلاة في شغف وجذل ؛ ويدعو من لم يكن آمن بعد ، الى الايمان ؛ الى ان آمنت غفار كلها ؛ واستقام له من امرها ما كان يريد .

وسرى خبرَ اسلام غفار في القبائل مسرى النور في الظلمة ، وتسامعت به احياء يثرب ؛ فطابت به نفساً ؛ وكان قد اسلم فيها اناس من الاوس والخزرج ؛ وهم من هم ، في

عرب الجزيرة ، منزلة ورأيا وبأسا ، وبسطة جاه ونفوذ وكانت قد تجاوبت باسلام الاوس والخزرج ، بطاح الجزيرة ؛ ورأت فيه للاسلام مغنما روحياً ومادياً ، ذا قيمة ووزن .

وجاء انيس يبشر اخاه ابا ذر ؛ فقال له ابو ذر : لقد كنت اتوقب ذلك . وسيهاجر رسول الله الى يثرب في القريب .

ودهش انيس ، وقال لاخيه : وما ادارك ان النبي سيهاجر الى يثرب ! قال ابو ذر : لقد فاتني يوم عدت من مكة ، مسلماً مؤمناً ؛ ان اقول لك ، ان النبي قال لي فيما قاله يومذاك ؛ انه سيؤمر بالهجرة الى ارض ذات نخل . وما احسب الا انها يثرب .

وراح ابو ذر ينتظر ؛ ويترقب اخبار النبي في شوق ، الى ان جاءه ان النبي في المدينة«١» وان المسلمين فيها ينمو عددهم من يوم الى يوم ؛ وانهم الى ذلك ؛ قد انتصروا على كفار قريش واتباعهم في بدر وأحد بعد ان استشهد منهم من استشهد ؛ فقرت بذلك عينه ؛ وحنت نفسه الى المدينة ، والالتحاق بالرسول ، يعمل في ضوء هديه وتعاليمه ، جندياً اميناً مؤمناً في خدمة العرب ؛ وخدمة الدين العربي الذي

«١» المدينة هي يثرب . وقد صار اسمها «المدينة» بعد هجرة النبي اليها

سينقذهم من الضلالة ؛ ويرتفع بهم من وهدة العبودية الصنمية ..
وظلمة العبودية السياسية والاجتماعية والاقتصادية ؛ الى قمة الحرية ومطالع النور . وعزم ابو ذر على السفر الى المدينة في الحال . وابو ذر ، حينما يعزم ؛ يتوكل وينفذ . قال لاخيه انيس انني خارج الى المدينة صباح غد . فسأله اخوه ومتى تعود ! قال : قد لا اعود ابـــداً . فعجب اخوه وقال له ، وماذا تفعل في المدينة ، قال انضم الى صحابة رسول الله ، واصارع بين يديه قوى الباطـــل والشر ، والكفر والشرك ؛ الى ان تعلو كلمة الحق ، وينتظم هذا الدين جزيرة العرب ، وينشر اشعته في آفاق الدنيا كلها ، فتنعم بالنور والحرية والخير . قال انيس ، ولكنّ قبيلتك في حاجة اليك ، واهلك اولى بك . قال لا . ان النبي اولى بالمؤمنين من اهلهم . ومن انفسهم . وغفار قد غمرها النور ، فاسلمت وآمنت . ولست اخشى عليهـــا الردة والنكوص . وقد طال مكثي في منازل غفار ؛ والمسلمون يستشهدون تحت راية الحق في بدر ، وأُحد ؛ وانا ؛ انا ماذا اصنع هنا ! أيكفي انني آمنت واسلمت ? . لا يا انيس ، ان الايمان لا يستقيم له الوزن الكامل ؛ اذا هو

لم يبعث فيك الرغبة في العمل ، والقدرة عليه . ان للايمان مقتضيات ؛ وفي رأس مقتضيات الايمان ؛ العمل الخالص الصالح المستمر ، في سبيل ما تؤمن به ؛ وفي كل ظرف وفي كل زمان وكل مكان . لا يثنيك عن هذا العمل رغبة في أمر او رهبة من امر . لا يثنيك عنه عسر ولا يسر . لا لذة في راحة العافية تستنيم اليها ، ولا وصب في عناء المرض تعزف عنه . لا بسطة في نعمة ؛ ولا شدة في حرمان . لا جوع ولا شبع ؛ لا ري ولا ظمأ . لا عُرف من اعراف المجتمع ، حينما يكون المجتمع متدنياً فاسداً ، او يغلب عليه التدني والفساد ؛ ولا سلطة من سلطات هذا المجتمع ؛ اية كانت هذه السلطة ؛ ومهما يبلغ من قدرتها على الايذاء والاغراء .

فالمؤمن الصادق ، بالحق والحرية والخير ؛ فوق هذا كله ؛ واكبر من هذا كله ؛ فهو ، لذلك يعمل رغم هذا كله ؛ في سبيل ما يؤمن به ؛ عملاً صادقاً كبيراً خالصاً مستمراً ؛ الى ما شاء الله . وما دام للحق وللحرية والخير ، هذه القيم العلوية التي بها وحدها يستقيم لهذه الانسانية ، الوجود الكريم الصاعد الى قمة الكمال الانساني ، آفاق

لا ندرك نهايتها ؛ فمعنى هذا ، ان الانسان المؤمن الصادق بهذه القيم ، مدعوٌ للعمل بايمانه هذا ، عملاً لا يحده زمان ولا مكان ؛ ولا ينتهي ابداً الا بانتهاء وجود الانسان ؛ اذا كان للانسان من انتهاء ...

ومن كان يا انيس ، من الذين يدّعون الايمان ، شأنه غير هذا الشأن ، فهو ، اما ان يكون منافقاً دجالاً ، يحتال لاستغلال الناس ، ـ وما اكثر وجوه الاستغلال ، ـ او ان يكون واهي العزم ، ضعيفاً ، ناقص الايمان . .

استودعك الله يا انيس . والى اللقاء تحت راية الحق .

وعانق ابو ذر اخاه ، واسرع ومعه اخوه الى امهما ؛ فودعها ابو ذر ، وانطلق الى المدينة ينشد صحبة رسول الله .

أبُو ذر في المدَينة

كانت خيوط من الظلمة ، اخذت يد الطبيعة تنشرها في سماء المدينة ، ساعة دخلها الرجل الذي كُتب له ان يكون اول ثائر عربي ، بعد الاسلام ؛ يثور بالحكام والخلفاء ؛ ثورة صدق وإيمان ويقين واخلاص ؛ أنهم يظلمون العرب ؛ ويهضمون حقوقهم ؛ من أسلم منهم ومن لم يسلم ؛ الا من توبطهم بهم ، رابطة القربى ولحمة النسب ؛ او تمنعهم بسطة في الثروة ، وعز القبيلة والجاه .

دخل ابو ذر المدينة ، وهو لا يعرف منها داراً ولا سوقاً ولا حياً - وكانت هي قد عرفت عنه الشيء الكثير - وراح يحاول الوصول الى حيث يلقى رسول الله ؛ فسمع في سُراه ، صوتاً ينطلق من احد المنازل ، بايات القرآن الكريم ، يرتلها ترتيلاً عذباً سائغاً شجياً ، فانشرح للذكر الحكيم صدره ، وطابت به نفسه ، وعاج على المنزل مستأنساً ، يسأل عن مكان رسول الله ، في المدينة ، فلا يبيت فيها ، الا بعد ان يتبرك برؤية النبي الرسول . وطرق الباب ففتح له ، فدخل

وسلم : السلام عليكم . فاجابه رب المنزل : وعليكم السلام ورحمة الله . فقال ابو ذر : انا ابو ذر الغفاري ، اخوك في الاسلام . وصلت الساعة الى المدينة آتياً من منازل غفار ؛ احب ان ارى رسول الله في مسائي هذا ؛ فهل لك ان ترشدني اليه مأجوراً من الله . قال الرجل ، مبتهجاً بابي ذر ، وقد هشّ له ورحب به ؛ لقد رُشدت . ولكن الا نجلس ، فتستريح قليلا وتصيب من زادي ، ما تيسر منه ، ثم نذهب الى المسجد . قال الذهاب الى المجلس احب اليّ .

وصحبه الرجل الى المسجد ، فاذا فيه طائفة من اصحاب رسول الله ، ممن لا منازل لهم في المدينة ؛ فقدمه اليهم مغتبطاً فخوراً : هذا ابو ذر الغفاري . الذي يذكره رسول الله كثيراً ويحبه . فسرت في المسجديين حركة تمثلت فيها روح الفرحة والابتهاج . ومازج اصواتهم التي ارتفعت قليلا ، بالترحيب ، كثير من الاحترام . وبلغ ذلك مسامع الرسول في منزله ، الملاصق للمسجد ، فقيل له ؛ ان ابا ذر الغفاري وصل الساعة . آتياً من منازل غفار ، فسرّ الرسولَ النبأ وارضاه .

ووسع المسجديون لابي ذر بينهم ، واخذوا يسألونه عن

حاله ، وما فعل الله به ، بعد ان غادر مكة الى اهله ؛ ونفوس قريش متنكرة له ، حاقدة عليه . واستطلعوه طلع امر غفار واسلامها الذي بلغهم خبره ؛ فقص عليهم ابو ذر تفصيلا ، ما كان من اسلام غفار وايمانها ؛ وكيف انه لم يلق ما كان يتوقعه من عناء ، في حملها على الصراط ؛ وذلك ببركة رسول الله ؛ وفضل ما كان لقنه اياه الرسول الكريم ، من آيات الدين الجديد ، تزخر بالحكمة والحق ، والرحمة والعدل . وتستطع فيها انوار الحرية والمحبة والرجاء .

وبينما هم يستمعون الى ابي ذر ، في شغف وجذل ، دخل النّبي المسجد لصلاة العشاء . وما ان انقضت الصلاة ، حتى التفت الى ابي ذر ، وعلى فمه بسمة الحب والرضى والاستبشار ؛ واستدناه اليه ، فدنا منه ابو ذر ، يملأ نفسه الحب والغبطة والاجلال ، ويتلألأ النور في عينيه وفي وجهه الاسمر المهيب المحبب ؛ فوضع الرسول يَده على رأسه وقال له : بارك الله لغفار ايمانها ، وغفر الله لك ولغفار !

هل اصبت عشاءك يا ابا ذر ! قال ليس بي من جوع يا رسول الله . قال الرسول بل ستتعشى معنا ؛ ان شاء الله . وكان فريق ممن ليس لهم منازل في المدينة ، من

اصحاب رسول الله يتعشون معه . ويوزع الباقين على اصحابه بالسوية ، في كل مساء .

***

مدرسة محمد

انطلق صوت « بلال » يشق اجواء المدينة ، قويا عذباً حنونا ، أذانا لصلاة الصبح ؛ وازدحم المسجد بالمصلين ، في طليعتهم رسول الله ، وبينهم ابو ذر . فصلّى النبي بالمؤمنين ثم انصرف الناس ، كل الى شأنه . وتحلق من بقي منهم حول النبي يستمعون اليه ويأخذون عنه . ويقبسون من نوره . يعلمهم فيتعلمون ، ويفقههم في الدين ، فيتفقهون . ويكشف لهم عن حقيقة المثل العليـــا ، والقيم الروحية والفكرية ، يمور بها هذا الدين ، ما هي ؛ فتنبسط آفاق عقولهم ومعرفتهم وتعمق ؛ وتسمو في الخير والحق نفوسهم وتعز . ويمدّ في هذه الافاق انبساطاً وعمقاً ؛ وفي هذا السمو ، وهذه العزة بالحق ، سمواً وعزة ؛ ما يمدّ الله في نفوسهم لعظمة محمد ، يحيا هذه المثل ، وهذه القيم ، فكراً وقولاً وعمـلاً وتدبيراً ، في عذوبة تمسح برفق على الوقار والجلال الدائمين ينبثقان من صميم ذاته ويمشيان في ركابه .

وأن يتسنى للقلم الاحاطة بمدرسة محمد هذه ، احاطة تتفق مع حقيقة

امر كما اعتقد تنقطع دونه بلاغة البلغاء ، وتعجز قدرة اللغة ، اية لغة ، عن ادائه اداء كاملاً . ولكن حسب الفكر الانساني ان يشير الى الرجال الذين خرّجتهم هذه المدرسة وفيهم علي وابو بكر وعمر وابو ذر ؛ وما كان لهم وما يزال ، من شأن ، في الوجود الانساني ، وليس العربي فحسب ؛ من نواحي الحياة المثلى ، علماً وفكراً وتشريعاً ، وحرية وحقاً وكرامة ، وشجاعة وصبراً وتضحية ؛ وعدلاً ورحمة ورفقاً ؛ ليستشف المفكر العاقل المتبصر ، من خلال هذا كله ، عظمة محمد الرجل ، ومحمد النبي ، الذي اخرج للعرب وللناس اجمعين هؤلاء العظماء الافذاذ ، ينشرون بعده في العرب وفي النـــاس اجمعين ، رسالة الهدى والحق والخير والمعرفة والكرامة .

قد طال ما سألت نفسي عن السبب في انصراف كتاب السير ، والمؤرخين لمحمد بن عبد الله ، الى جانب النبوة فيه حسب ، دون جانب الرجولة ؛ جانب الذات الانسانية المتكاملة ، واني ارى من القدسية في الواجب القومي ، والواجب الانساني ، والواجب الشخصي نحو محمد العظيم ، - وقد فرض عليّ سياق الكلام على « ابي ذر » الثائر العربي وأحد تلاميذ

مدرسة محمد – ان اعرض لهذه المدرسة العظيمة الفريدة ؛ ان اشير اشارة مقتضبة الى جانب الرجولة الضخمة ، جانب الذات الانسانية المتكاملة ، في الرجل الذي اصطفاه الله نبياً ورسولاً ؛ فأحس ْ انّ جانب النبوة نفسه ، هذا الجانب الذي كان يلقي اضواءه على جانب الرجولة في محمد ، فيمد في اشراقه ، وفي عظمته ؛ هو نفسه ، يجدر بالذين يقدرون محمداً النبي ، ان يروا فيه عظمة الجانب الرجولي في محمد ، والا لماذا لم يصطف الله عظيماً من عظماء العرب وغيرهم من عظماء الارض ؛ يجعل منه نبياً ورسولاً ؟ !

اليس « ان الله اعلم حيث يجعل رسالته . »

وكان « ابو ذر » من انجب تلامذة محمد . ومن احب صحابته اليه . ولم يتبسط الرسول مع احد من صحابته مثل ما تبسط مع « ابي ذر » وقد كان العرب من اسلم منهم ومن لم يسلم ، ولا سيما في المدينة ، يتحدثون بما لابي ذر من مكانة عند الرسول ومن محبة له في نفسه . واننا نعتقد ان في كلمة رسول الله : الحديث المشهور « ما أقلت الغبراء ولا اظلت الخضراء من رجل اصدق من « ابي ذر » اشارة الى ما سيكون لابي ذر من شأن ومن خطر في الاسلام . ذلك ان الصدق عنصر من

العناصر الاولى الرئيسية لعظمة النفس في منطق القيم .

وأن يشهد اعظم الشاهدين على الاطلاق ؛ مثل هذه الشهادة بابي ذر ؛ أمر اقل ما فيه انه يجب ان يحفز ارباب الفكر ، واهل التقصّي ؛ تقصي النفس ، على استقراء شؤون هذا الرجل وحالاته ، ينفعون باستجلاء حقائقهـــا ، هذه الانسانية المعذّبة التي ما تزال في حاجة شديدة جدا لمثل ابي ذر ، حتى في القرن العشرين هذا ؛ قرن الاعـاجيب العلمية ؛ وقرن المذاهب الاجتماعية التي تدعي السبق في وضع نظرية المساواة بين الناس في توفير العدل وكرامة العيش ... فيؤلفون فيه عشرات الكتب ، ويجيئون من نفسه المتعددة النواحي الغنية بالعظمة الانسانية ، بما قد يكون فيه شيء من علاج لِما في هذه الانفس البشرية « البهيمية » من فقر في القيم ، ادّى الى سيادة هذه الاعراف الزائفة في المجتمع الانساني . الاعراف التي تمجد القدرة على الكذب والتضليل والخديعة والغش والرياء والنفاق والتذبذب ، وعلى ظلم الانسان للانسان واستعباد الانسان للانسان وتسمي ذلك ، ذكاء ، وعبقرية ، واداباً رفيعة ، وسياسة عليا ، وفرط دهاء ...

في صحبة الرسول

لعل احداً ممن صحبوا الرسول ، لم يتأثر بهذه الصحبة اكثر مما تأثر ابو ذر . فقد كان ابو ذر حريصاً ، مبالغاً في الحرص ، ليس على الاستنارة بعلم الرسول والاهتداء بهديه ، حسب ، بل على التأدب بآدابه ، ايضاً ، والانفعال بكل ما يقوله ، ويعمله ، ويختلج في نفسه ؛ اذا هو استطاع ادراك خلجات هذه النفس الزكية العظيمة ؛ وكثيراً ما كان يدرك هذه الخلجات ! وكان اكثر الصحابة الاولين والآخرين ، استفساراً عما يشهد من الرسول ويسمع . وعما يدور في خلده هو ، من خواطر وفكَر تتصل بقيم الوجود وسنن الكون ، ونظرة الاسلام الى هذا كله ؛ فاصبح عدا ما كان في نفسه من قيم ؛ شهد الرسول باعظم عناصرها ؛ وهو الصدق ؛ محدثاً من المحدثين الاجلاء ، وعالماً من اكابر العلماء . حتى قال علي بن ابي طالب العبقري العظيم – وهو الذي وصفه الرسول بالعلم – ان ابا ذر : « وعى علماً عجز عنه الناس » . وانه قد « مُلِيء له في وعائه حتى

امتلأ . »«١»

وقد نستطيع القطع بان ابا ذر كان في اساس تركيبه النفساني امرؤاً يحب العدل والانصاف . ويكره استعباد الانسان للانسان وظلم الانسان للانسان واستغلال الانسان للانسان ؛ وكان يحب المستضعفين والفقراء والكادحين في سبيل الرزق ويحدب عليهم ؛ ويعجب لهذا الوضع الاجتماعي الذي اقام مثل هذه الفروق وهذه الحدود بين هؤلاء ؛ وبين القلة القابضة على زمام السلطان وزمام الاعمال ، في المجتمع الذي يعيش فيه ، تستعلي على السواد من ابناء هذا المجتمع ، وتتحكم فيهم ؛ كان يعجب لهذا ويتألم منه ؛ فلما شرح الله صدره للاسلام ، ودخل فيه مترع النفس ايماناً وحماسة ، ثم صحب الرسول وشهد ما كان يصنعه بمال الاغنياء الذي فرضه عليهم زكاة ، وضرائب متنوعة ؛ من مثل توزيع هذا المال على الفقراء ، والاستعانة به في تنظيم امور المجتمع ، واستصلاح شؤون الناس ؛ وحملهم على القيام بحقوق الله وحقوق عباد الله ، بميزان ؛ طابت نفسه ، وانبسطت امام عينيه افاق الامل في تصحيح اخطاء هذا

«١» ابو ذر الغفاري - قدري القلعجي . ص ٢٢

المجتمع واصلاحه .

كان ابو ذر ينعم بضمير حي نقي حساس موجّه ، متحفز ابداً لحساب ابي ذر ، وهكذا كان ابو ذر يحاسب ابا ذر ، وينصف الناس من نفسه . من هنا ، ومن تحلي ابي ذر باقوى عناصر القيم : الصدق ، كانت قوة ابي ذر ، وجرأته ، وشجاعته ، وحرمته في النفوس ومحبته ، ومن هنا كان حب الرسول له وحفوله به . حدث ذات يوم ان حصلت بين ابي ذر وبين بلال مشادة ، فعيره ابو ذر ان قال له : يا ابن الحمراء ، فنال ذلك من نفس بلال وامضّه فشكاه الى الرسول . وجاء ابو ذر الى مجلس الرسول ، فابتدره بقوله : يا ابا ذر بلغني انك عيّرت اخاك بامه !

قال ابو ذر : نعم يا رسول الله لقد فعلت .

قال الرسول : يا ابا ذر ، انك امرؤ فيك جاهلية .. الم تعلم انك لست افضل من احمر ولا اسود في هذه الدنيا ، الا ان تفضله بعمل ! اعلم ذلك ، يا ابا ذر ، ولا تنسه .

فاطرق ابو ذر مستحيياً نادماً ، وقد ايقن انه اخطأ ، وانه اساء الى بلال ، وان في هذه الاساءة ، ما يكرهه هو نفسه ، لو انه عاد الى ذاته متقصياً في شيء من التبصر

والهدوء . ومد ضمير ابي ذر رأسه مستعلياً يحاسب ابا ذر ، فتمدد هذا على الارض يقول لِبلال في اخــلاص ، وفي سكون عجيب : ضع قدمك على خدي ؛ وسامحني . فهرع اليه بلال فـاخذه بين ذراعيه ، وانهضه متأثراً بهذا الخلق الكريم الوديع ، وعفا عنه .

وقرت عين الرسول ، وطابت نفسه بهذا المشهد المؤثر ينهض تعبيراً صادقــاً حاراً عن السماح والسمو في نفسي صاحبيه الكريمين .

ولم يقل ابو ذر شيئاً الى ان سأله الرسول عما حمله على مــا كان منه في حق صاحبه فقال : لقد اغضبني يا رسول الله .

قال الرسول : يا ابا ذر ، اذا غضبت وكنت قائما ، فاقعد ، وان كنت قاعداً فاتكيء . وتوقَّ الغضب برحابة الصدر ، يا ابا ذر ، والتفكير بالعُقبى .

وبعد هُنيهة اخذ اهل المجلس بالانصراف الى منازلهم ، الواحد بعد الآخر ؛ وبقي ابو ذر مع الرسول ، فالتفت اليه وقال : يا ابا ذر انك رجل صالح . وسيصيبك بلاء بعدي قال ابو ذر بهدوء : في الله ؟ فقـال الرسول : في الله .

فبدا البشر في وجه ابي ذر ، وقال في طمأنينة الرجل الصالح المؤمن : مرحبا بأمر الله .

مرحبا بأمر الله ! ما اقوى ما تدل عليه هذه الكلمة ، من ايمان ، وما اعمقه ! وما اشد ما في هذه النفس النقية المطمئنة ، من تعبد للحق والخير ؛ تتوقع البلاء ، مستيقنة بحلوله ، في سبيل الله ؛ في سبيل توفير العــدل والخير والكرامة ، لعباد الله ؛ بمثل هذا العزم ومثل هذا الاطمئنان ومثل هذه اللامبالاة بالبلاء !

والايمـان بالله ، لا يختلف عنـه من الناحية العمليــة لمتطلبات الايمان ومقتضياته ، الايمـان بالحق . بحق الفرد وحق الامة . حق الانسان ، وحق الانسانية جمعــاء . وهذا هو ايمان ابي ذر الشامل ، الـكامل ، الذي اخطـأ التوفيقَ في تقديره ، وفي تقديرِ ما يمكّن للعمل بمقتضياته ، للحضارة و « التقدم » في هذه الدنيـا ، فريق من الباحثين والكتاب .

***

بلغ من ثقة الرسول بابي ذر ، انه استخلفه عــلى المدينة يوم خرج لوضع حـد لشغب بني المصطلق على

الاسلام والمسلمين ، ودعوتهم الى تأليب فريق من العرب على انزال الاذى بالرسول ، ومن آمن برسالته . وانه كان لا يرجو في عمل ، خيراً للرسالة ، مهما يكن من شأن المصاعب والمخاطر تحف بهذا العمل ، الا ويوقن ان ابا ذر مقبل عليه داخل فيه ، في عزم وتصميم وعناد وانشراح صدر ، لا ينكص على عقبيه ، ولا ينثني ، او يبلغ سؤله ، ويُرضي في نطاق الرسالة ، ربَّه ونبيه . ومعنى في نطاق الرسالة ، في نطاق الهدى والحق والحرية والخير للعرب وللناس كافة .

وانتهى الى الرسول يوماً ، ان السلطة الرومانية في الشام – وكانت بدأت تحسب لرسالة الرسول التحررية السماوية حسابها وتخشى خطرها – قد جهزت جيشاً تقذف به شمالي الحجاز لتقضي على الرسالة العربية الاسلامية والقائم بها ، قضاءً تطمئن معه الى استمرار قيام سلطانها وسيادتها ، فلم يفسح لها الرسول في امتداد امانيها ، وهيأ جيشاً من العرب الذين آمنوا برسالته زحف به نحو الشام ليُري الرومان انه على استعداد لرد عدوانهم ووضع حد لسلطانهم على العرب ، ينهض بهذا الامر معه القبائل العربية ، من أسلم منها ، ومن لم يكن قد اسلم بعد وكان نفر

من الذين مشوا من المدينـــة تحت راية الحرية والحق : راية الرسول ، تتقطـع بهم الطريق ، فيتخلفون ، إما لعجـز في مطاياهم ، او لضعف في عزائمهم ؛ وكان من الاولين ، ابو ذر ، فقد كانت راحلته ضعيفـة عـاجزة ، لم تقو على مرافقة الجيش في مسيره ، ولكن ابا ذر لا يُعجزه مثل هذا الامر ، فهو يريد ان يلحق بالرسول وان يجاهد بين يديه في سبيل اعلاء كلمة الحق ، وسيفعل مهما يـكن من أمر . وقد فعل . فخلّى سبيل مطيته في الطريق ، وراح يضرب في السهوب والفيافي ، يصعـد حيناً ، وينحــدر حيناً ، ويُسهل غالباً ، الى ان كاد يقعده التعب والعطش ، ولكن العطش والتعب وما اليهما ، من مثبطات للعزائم ، قد تُقعد غير ابي ذر ... اما ابو ذر بالذات ، فهو من الذين يُعجِزون التعَب والعطَش ، وغير العطشِ والتعب ، حينما يمشون في سبيل الله ؛ في سبيل القيم الانسانية التي بها وحدها ، يعصم الله هذا الوجود ، من الانهيار الكـلي ، والتردي التام في هُوّة الشر والبهيمية ؛ وهو كان يمشي في سبيل الله وسبيل هذه القيم ، اذن ، فان امرأ ما ، مهما يكن ؛ لن يعجزه عن اللحـاق بالجيش ، والجهاد بين يدي

رسول الله . واستمر ابو ذر في سيره ، كلما حاولت طبيعة الجسم اغراءه بالقعود والنكوص ، حاربها بطبيعته النفسية القوية العارمة ، يمد لها في القوة والصبر وكرم الاحتمال ، ايمان بالله وبرسوله لا يُغلب ولا يتضعضع . وقال قائل من افراد الجيش : قد تخلف ابو ذر يا رسول الله . قال الرسول ان تخلف فهو ضعيف ولستم في حاجة الى ضعفاء ؛ ولكن ابا ذر لا يتخلّف .

وما هي الا لحظات - وكان جيش العرب اوشك ان يصل الى تبوك - حتى ظهر في الافق غير البعيد ، رجل يسعى ؛ يبدو للناظر اليه في تفحص ، ان الاعياء عنده يغالب السرعة ؛ وراح القوم ينتظرون ، دهشين ، وصوله اليهم . واذا اصوات ترتفع : ابو ذر ! ابو ذر ! واذا الرسول يأخذه بين ذراعيه ويقول لمن حوله ، ادركوا ابا ذر بالماء ؛ فيشرب ابو ذر شرب ظامىء ، اضناه الظمأ ؛ ثم يقدم الى الرسول قربة صغيرة كان يحملها مع سلاحه ، ويقول : هذا ماء قليل آليت على نفسي ان لا اشرب منه قبل ان يشرب منه رسول الله ؛ ذلك انه ماء المزن امتلأت به نُقر في صخرة مررت بها ، فذقته فاذا هو عذب بارد ،

لم اذق مثله من قبل . فيعجب الرسول ويقول : يا ابا ذر رحمك الله ؛ تمشي وحدك وتموت وحدك وتُبعث وحدك . ويمشي جيش العرب على تبوك ، فيدخل أهلها في طاعته ؛ وتُقبل على تبوك وفود القبائل العربية ، مسالمة ، فيرحب بها الرسول ، ويمنحها السلام ، وتتعهد هي بدفع ما يفرضه عليها ، الى بيت المال ؛ في قبول ورضى . ثم يعود جيش العرب الى المدينة بدون ان يصطدم به الجيش الروماني

قد يعجب البعض كيف ان الجيش الروماني لم يتعرض يومذاك لجيش العرب ؛ مع ان السلطات الرومانية ، كانت تحلم في القضاء على الرسالة العربية التحريرية الانسانية الخالدة يحملها ، محمد بن عبد الله من لدن السماء ، ليس الى العرب ، حسب ، بل الى اهل الارض كافة . ليس تعليل هذا الامر ، من اغراض هذا الكتاب ، ولا هو مما يدخل في موضوعه ، وموضوعه « ابو ذر » وما يتصل بابي ذر ، ليس غير ؛ ولكننا نستطيع ان نشير الى ذلك اشارة عابرة ؛ بالقول انه قد يكون السبب في ذلك ان السلطات الرومانية في الشام ، لم تكن بعد ، قد اوفت على الغاية ، من اعداد الجيش الروماني من مختلف الوجوه ، الاعداد الذي تريده ، والذي يضمن

لها في حالة التعرض الى القوات العربية ، سحق هذه القوات وانقاذ السلطان الروماني ، والتمكين له في الدوام .. او الاستمرار ...

عهد الخلافة

وقعت الفاجعة برسول الله ، في العام الحادي عشر للهجرة. فكادت تذهب بالباب العرب الذين آمنوا ، وفي رأسهم ، صحابة الرسول ، حزنا ودهشة ؛ لولا ان قام من بينهم ، الصدّيق الذي لم يكن اقل منهم حسرة ، وارسل فيهم كلمته الخالدة : من كان يعبد محمداً فان محمداً قد مات . ومن كان يعبد الله فان الله حي لا يموت . وراح مردداً الآية الكريمة : « وما محمد الا رسول خلت من قبله الرسل ، أفان مات او قتل انقلبتم على اعقابكم . » فذكر الناس قول الله هذا ؛ وقوله مخاطبا الرسول : « انك ميت وانهم ميتون » فعادوا الى صوابهم واسلموا امرهم الى الله . وراح ابو ذر – وكان الحزن يكاد يهده هداً – يردد : « كل نفس ذائقة الموت وانما توفون اجوركم يوم القيامة » و « كل شيء هالك الا وجهه له الحكم واليه ترجعون » .

ثم بويع لابي بكر بالخلافة ، وكان ابو ذر يؤثر بالمحبة والتقدير ، علياً ؛ ولكنه بايع ابا بكر ؛ كما بايعه علي

نفسه ، اتقاءً للفتنة . وسداً للثغرة التي حاول ان يفتحها في صفوف المسلمين جماعة المنافقين . حمل علياً على ذلك ، وحمل معه ابا ذر ؛ نبل راسخ في النفس ، وحرص صادق على الاسلام ؛ وعلى الفكرة الانسانية الضخمة السامية التي يحملها الاسلام ؛ وبُعدُ العربَ ليكونوا حَمَلَتها الامناء والاقوياء ، الى الناس اجمعين .

وزال زوالاً تاما ، ما كان قد خالج نفس ابي ذر ، يوم وفاة الرسول من خشية ، ان تتبدل الاوضاع التي ثبّتها في حياته ، وان يُتسامح بعودة شيء من السلطان الى الذين كانوا يُصرّفون سلطانهم في استغلال المستضعفين والفقراء واستذلالهم ؛ لقد زالت هذه الخشية من نفس ابي ذر زوالاً تاماً ، بعد ان استيقن من سيرة الخليفة الاول وسياسته . وآمن ان ابا بكر ، في تصريفه شؤون الدولة ، يستهدي بكتاب الله ، وسنة رسوله ؛ في دراية وحزم ومضاء . فطابت بذلك نفسه واطمأن قلبه وراح يبذل للخليفة ، ما وسعه من عون في سبيل توطيد اركان الدولة ، ونشر العدل والمساواة في نطاق ما يفرضه الاستحقاق ، وتفرضه الحاجة لعيش انساني كريم .

واقتدى الفاروق في عهده بابي بكر ، فكان عهد عمر امتداداً لعهد الخليفة الاول ، مضافاً اليه نوع من التدابير اقتضتها سنة التطور ، في نطاق مصلحة العرب ؛ المسلمين منهم وغير المسلمين ؛ وفي نطاق مصلحة الدولة التي بدأت تبسط رقعتها وتتسع آفاقها ، وتتعقد مشاكل مجتمعها ؛ نتيجةً طبيعية لسنة التطور والتقدم ، في كل زمان ومكان .

وكان موقف ابي ذر من الفاروق ، موقفه من الصدّيق ، من قبل ؛ حُبّاً في الله وعوناً في سبيل اعلاء كلمة الحق ، وامعاناً في رفع مستوى المستضعفين والفقراء ، وتمكيناً للعدل الشامل ، وتوطيد رسالة الرسول الخالدة ؛ في صدق وصراحة ، وفي يقظة وحساب دقيق .

وعلى هذه الاسس المتينة الخيِّرة اضحى ؛ لابي ذر مدرسة ، كان لها اثرها العميق في ثورته ايام عثمان ، في المدينة ؛ ومعاوية في الشام .

طلائع الثورة

ما كادت الخلافة تنتهي الى عثمان ، حتى طرأ عليها امور ليست من كتاب الله في شيء ؛ ولا هي في شيء من سنة رسول الله ، وسيرة الخليفتين من بعده ، ابي بكر وعمر . وقد نبه الخليفةَ عثمان الى ذلك اول من نبهه ، المؤمن الاول بالاسلام وبطله ، وعالمه وحجته : علي بن ابي طالب . ونبهه اليه ابو ذر ؛ فكان تنبيه ابي ذر عليه ثقيلاً ... ويبدو لي ان الخليفة عثمان لم يقوَ ، على قوة ايمانه ، وصدق تقاه ، وعظم ادراكه لماهية الاسلام ، ومُرتكز تقديره لمنازل الافراد والجماعات ؛ ذلك المرتكَز الذي لا شأن فيه لغنى او فقر ، ولا لوجاهة أو غَمر ، ولا لاسرة دون اسرة او قبيل دون قبيل ؛ والذي لا شأن فيه الا للايمان والعمل ليس غير ؛ اقول يبدو لي ان الخليفة عثمان ، رغم توفر هذا كله له ؛ لم يقوَ على احتمال التسليم بحق ابي ذر ، في المنزلة التي انزله فيها ، بحق – طبعاً – رسول الله ؛ اي المنزلة التي يقررها الايمان والعمل ، ليس غير . ولا يقررها

الغنى ، ولا الوجاهة ، ولا الاسرة ، ولا القبيل !

من هنا موقف عثمان من علي الناصح الموّجه ، وهو يجمع الى ما يقرره مُرتكز التقدير الاسلامي لمنزلة الانسان ، من ايمان وعمل ؛ عزّ الاسرة وشرفَ القبيل . ومن هنا كان يلين عثمان لعلي ؛ ويشتد على ابي ذر ؛ وابو ذر كعلي ، لا يغني عنده من الحق ، من شيء . لا لين ولا شدة . ولا ترغيب ولا تخويف ، ولا اغراء ولا ايذاء . ولكن في جملة ما يختلف الواحد منهما عن الآخر ، كان شيء من الفرق ؛ لعله من جهة الاساليب في العمل .

اما الامور التي شعر الناس في خلافة عثمان ، ان فيها شيئاً من الانحراف عن سنة الرسول ، وعن سيرة الخليفتين من بعده ، فيجيء في رأسها موقف الخليفة عثمان ، من المستضعفين والفقراء ، واهماله شأنهم ، ومظاهرته الاقوياء والاغنياء عليهم . والفقر والاستضعاف ، شيء في مقدمة ما حاربته الرسالة ، مثل محاربتها الوثنية والشرك والجهل ؛ ووضعت له تشريعاً ، اخذ به من بعد الرسول ، الخليفتان العظيمان . وكان الصفوة من صحابة الرسول الذين كانوا ما يزالون في الاحياء ، وفي مقدمتهم علي وابو ذر ، يؤملون

ان يصلوا بالعرب ، وسائر الناس الذين تطبق فيهم الرسالة ؛ بواسطة ذلك التشريع ؛ الى المستوى الانساني الكريم الذي تقرر الرسالة انه من حق الانسان ؛ اي انسان ؛ في هذه الحياة . ومعنى ذلك بايجاز ، ووضوح ، ان يصلوا الى القضاء على التفاوت الهائل المصطنع القائم بين الناس ، نتيجة نظم وتقاليد فاسدة ؛ من اهداف رسالة الرسول القضاء عليها ، وانقاذ الناس منها ؛ والتمكين لما نسميه اليوم بـ « العدل الاجتماعي » باوسع معانيه واعمق مدلولاته ، في الناس اجمعين . ثم موقفه ، اي عثمان ، المتأثر بالعصبية ، عصبية الاسرة والقبيل ، من بني امية ؛ فقد ولاهم مناصب الدولة ، واجرى عليهم ما لا يستحقون من الرزق ، وسهل لهم بواسطة بيت المال اي مال الشعب ، تشييد القصور واقتناء الضياع ، ليس في الحجاز حسب ، بل في العراق ايضاً ، والشام ومصر . فكأنه بهذا التصرف ، اعان من حيث يقصد ، او لا يقصد ، على تعميق التفاوت الذي كان بدأ يخف بين الناس ، وعلى تكوين طبقة « ارستوقراطية » من جديد ، كانت اخذت في الانحلال ، شيئاً فشيئاً ، بفعول ماهية الرسالة ؛ وجهود الرسول ، والخليفتين من بعده .

ولم يطق ابو ذر السكوت على هذه الامور ؛ وهو الصحابي الجليل النبيل ، العائش القيم التي رسّخها الرسول في عمق اعماق ذاته ، فكراً وقولاً وعملاً ؛ حتى ليستحيل عليه ان يتساهل مثقال ذرة في التطاول على هذه القيم ، او الانحراف عنها ، او العبث بها ، مهما يكن من شأن المتطاول ، او المنحرف ، او العابث ، أخليفة كان ، ام كان ملكاً . ام غير ذلك ؛ فراح - بعد ان لم يُجدِ النصح والتوجيه لدى عثمان - يذكّر الناس بآيات الكتاب ، وسنة الرسول ؛ وسيرة الصدّيق والفاروق ؛ ويعقد الحلقات في المسجد وغير المسجد ، يوآسي الفقراء ، ويشجعهم على المطالبة بالعدل والانصاف . ويهاجم الطبقة « الارستقراطية » التي احياها عثمان ، وعلى رأسها مروان بن الحكم ، الذي اعطاه عثمان « خيبر » ، - وهو لا يملكها ، وانما يملكها المسلمون ؛ فقد كان الرسول تركها فيئاً للمسلمين ، - كما اعطاه يوماً خمس خراج افريقية ، واباح لمعاوية خراج الشام . ولم يمنعه ان عثمان خليفة ، وانه امير المؤمنين ، ان يهاجم عثمان بعنف ، ولكن بحق . من ذلك انه ما كان يجلس في المسجد الا ويتلو : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا

ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم » وما شابهها من آيات الكتاب الكريم .

ورفع مروان امر ابي ذر الى امير المؤمنين عثمان ، فبعث اليه ان يجيء ؛ فلما دخل عليه بادره بقوله : ماهذا الذي بلغني عنك يا ابا ذر . قال وما بلغك عني يا امير المؤمنين ؟ قال عثمان : انك تحرض الناس عليّ . فقال ابو ذر : وكيف ذلك ؟ قال عثمان انك لا تقرأ في المسجد الا : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . »

فابتسم ابو ذر برصانته وهدوئه وقال : أوَ في هذا تحريض على امير المؤمنين !! ام ان امير المؤمنين – لامر ما – يريد ان يمنعني من قراءة كتاب الله . اني ماضٍ في قراءة كتاب الله وتعليمه المسلمين ، وحملهم على قراءته ؛ وان اسخط هذا امير المؤمنين – وما كنت احسب انه يسخطه ... – فلئن كنت حريصاً على رضاك ، انك امير المؤمنين ، فانني على رضى الله احرص . هذا ما علمنيه كتاب الله ورسوله ؛ وانا اؤمن بالذي تعلمت وعلمت .

دُهش عثمان دهشة بالغة ، وكاد الغضب يخرجه عن

وقاره ؛ لولا انه لم يجد مـــا يرد به على القول الحق ، والمنطق الصحيح السليم ؛ فسكت عـــلى مضض . وخرج ابو ذر ينعم بسكينة النفس وطمأنينة القلب وسعادة الضمير؛ وهو اقوى ما يكون عزماً وتصميماً على المضي في سبيله الى ان يأتي امر الله . الا ان الخليفة لم يعجبه ذلك كله ؛ واضمر لابي ذر امراً ، وراح يترقب فرصة ما ، لتنفيذ هذا الامر .

ولم يطل ارتقاب الخليفة ؛ فقد دخل عليه ابو ذر بعد ايام ، فاذا عنده كعب الاحبار ، وهو يهودي اسلم ؛ ولم يؤمن . اسلم وفي نفسه ان يحمل الى الاسلام — وذلك اهون عليه مسلماً منه يهودياً — ما يعتقد انه يوهن الاسلام ، ويوقع البلبلة في صفوف المسلمين ؛ فسلم ابو ذر وجلس . ودار الحديث في الاسلام وشؤونه ، فقال عثمان ايجوز للامام ان يأخذ من بيت المال ، حتى اذا ما ايسر رد ما أخذ ؛ فقال ابو ذر لا . فانبرى كعب الاحبار يقول ليس في ذلك من بأس . فالتفت اليه ابو ذر وقال له : يا ابن اليهودية ! أأنت تعلمنا ديننا ! ولكزه في صدره ، فكاد يقلبه على قفاه . فغضب عثمان وانتصر لكعب ، أن

اهانه ابو ذر ، وضربه في مجلسه ؛ وقال لابي ذر : لن تمكث في المدينة بعد اليوم ؛ اخرج : اخرج الى الشام . وخرج ابو ذر ، والاصح انه أخرج ، فكان ذلك اول نفي سياسي ، في الاسلام .

بين أبي ذر ومعاوية

كان معاوية ، الداهية العربي الكبير ، عاملاً لعثمان على الشام ؛ وحينما يقال الشام ، كان الناس يفهمون يومئذ ، من دون شرح ، ديار الشام قاطبة كما هي ؛ فلم يكن هناك سورية واردن ولبنان . وكان معاوية بدالته على ابن عمه ، في المدينة عاصمة الخلافة في ذلك الحين ؛ الخليفة عثمان ؛ ومعرفته ضعفه ، يحكم الشام ، حكماً قد يصح ان نسميه كيفياً ، كما يطيب له ، ويتفق مع هواه . وكان مع اهتمامه بشؤون الديار الشامية ، بصورة عامة ، ورغبته في خلق قوة عربية منها ، قادرة ذات شأن ، تقوى على تحمل اعباء القتال ، والتمهيد لامتداد الفتح العربي ، الى اقصى ما يمكن من ارجاء الامبراطورية الرومانية ، الى الشمال ، الامر الذي لا يقبل الانكار ؛ مسرفاً مبذراً ، مشجعاً بسيرته على التبذير والاسراف . لا يُعنى بميزان العدل ، ولا يلتفت الى انصاف الفئات التي تشبه ما نسميه الفئات العاملة اليوم ، وكان يوزع اكثر ما يوزع الخراج ، على

الاغنياء ، وعلى الذين يمتون الى بني امية بعرق او صلة والذين تربطهم به رابطة مودة ، او نابمية عمياء ؛ ويعتمد عليهم في تحقيق مآربه الذاتية ، واغراضه البعيدة ، يعمل لها تحت ستار الجود والسخاء والحلم ... في دأب ، وفي نهم ، وفي استهتار ؛ الا بما يضمره من مطامح ومن آمال ... وكانت ابهة معاوية في الحكم من جهة ، واعطياته الى اهل الوجاهة والغنى في المدن ، والى سادات القبائل في منازلها ، من جهة اخرى ، تنزل من هيبته في نفوس الفئات المحرومة والفقيرة ، ما يمد في كتم سخطها ، والسكوت عن المطالبة بحقها . فلما وصل ابو ذر الى الشام ، وكان قد سبقه اليهـا شيء من خبره في المدينة ، استقبلته هذه الفئـات في كثير من الاغتباط والاكبار والامل في الخلاص . ولم يطـل الامر بابي ذر حتى انكشف له مجتمع الشام عن مظـالم ، كانت مظالم المجتمع في المدينة ، في جانبها شيئاً يسيراً . فهاله ما بدا له من هذه المظالم تقع على المحرومين والفقراء ؛ وراح يحاربها بكل ما في ذاته من قوة ايمان بالرسالة التي نذر لها نفسه ، مخلصـاً مطمئناً ؛ من اللحظة الاولى التي آمن فيها بهذه الرسالة في مكة ، التي كان قصد اليها بحثاً عن

« الرجل النبي » منذ اكثر من اربعين عاماً ؛ كما كان يحاربها في المدينة ، ويهاجم بسببها عثمان وانصار عثمان .

فكان يقف في المسجد في اوقات الصلاة وغير اوقات الصلاة ، فيتلوا آيات الكتاب الكريم ، ويكثر من ترديد الآية : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيل الله فبشرهم بعذاب اليم . » وما هو بمعناها من آيات . فأنس فيه المستضعفون والمحرومون والفقراء نصيراً مؤمناً مخلصاً قوياً ؛ فالتفوا من حوله وتعلقوا به ، وسرت في نفوسهم رعشة من امل ، وانتفاضة من جرأة ؛ بما كانوا يسمعونه منه ويلقنهم اياه . واحسّ معاوية ان الامر جد ، فخطر له ان يصرف ابا ذر عما هو فيه ، بما لا يغضبه ، ولا يسيء اليه ؛ فطلب منه ان يرافق الجيش العربي الى فتح جزيرة قبرص ، ففعل ، وابلى في القتال ما شاء له الايمان ولكن الجيش ما لبث طويلاً حتى عاد منتصراً مظفراً ؛ فعاد ابو ذر الى مكانه في الشام يصل ما انقطع ، في غيبته ، من سلسلة كفاحه ، في سبيل المظلومين والمحرومين والفقراء ، وعاد هؤلاء الى الالتفاف حوله والاستماع اليه والاستقواء به ، وراحوا ينشرون دعوته في شيء من الجرأة والاندفاع

بعـــد ان كانوا يتهيبون ويتكتمون . وذهب يوماً الى معاوية – وكان قد بلغه عنه انه يقول ان المال ، مال الله وليس مال المسلمين – فقال له : بلغني انك تقول ان المال، مال الله وليس مال المسلمين ! ولكأنك تعتقد ان هذا يعفيك من بذل المال في سبيل الله ، ويبرر انفاقك هذا المال على نفسك واهلك وذويك وقصورك ؛ دون المسلمين المقاتلين والعاملين والمعوزين . لقد خاب فألك يا معاوية ، واخطأت التوفيق في رأيك . فسواء اسميت هذا المال ، مال الله ، ام سميته مال المسلمين ، فانما هو مال يجب ان يبذل في سبيل المسلمين ، لانه من اموالهم جُمع . فاذا ابيت الا ان تسميه مال الله ، فان الله يقول : « والذين يكنزون الذهب والفضة ولا ينفقونها في سبيـل الله فبشرهم بعذاب اليم . » وما ادري ما هي حـاجة الله الى المال ، ان لم يكن ذلك الى انفـاقه في سبيله . وهل يدرك احد اكثر منك ان انفاق « الذهب والفضة في سبيل الله » يعني انفاقها في سبيل مرضاة الله ! وهل يُرضي الله في نطاق هذا المعنى شيء ، اكثر مما يرضيه انفاقها في سبيل الحق والخير والسعادة ؛ حق الناس وخيرهم وسعادتهم ! هـل يرضيه اكثر من ان

تعدل فتعطي كل انسان حقه ، غير متأثر الا بكتاب الله ، وسنة رسول الله ! ليس من حقك ان تكنز هذا المال لتنفق منه على ملاذك وما يحقق رغباتك الخاصة واهواءك وعلى بني امية ، ومن اليهم ، ممّن لا يراجعك في حق ولا في باطل ، تزلفا منهم اليك ونفاقاً ..: وخرج ابو ذر اكثر ما يكون اطمئنانا الى انه ارضى ضميره وارضى ربه .

لم يبد على معاوية اي أثر للغضب ؛ بل حاول ان يسترضي ابا ذر بشتى الوسائل ولكنه لم يفلح ، وليس في الواقع ، أسهل من ارضاء ابي ذر ؛ وبوسيلة واحدة : العدل . العدل الشامل المطلق . ولكن يا لصعوبة هذا « السهل » ووعورته ومرارته ؛ على معاوية ، واخوانه وصحبه !

ولجأ معاوية الى ما يلجأ اليه حكام اليوم ، من خسيس الوسائل لاسترضاء ابي ذر ؛ فوقع في الخطأ الشنيع الذي يقعون فيه ، من ضلال في التقدير للانفس والضمائر : لجأ الى المال ؛ فبعث اليه يوماً بثلاثمائة دينار ، فقال ابو ذر لحاملها بكل بساطة : اذا كانت من حقي الذي حرمتمونيه فاني اقبلها . واذا كانت صلة فخير لك ان تردها اليه ! وقل له انه ضلّ السبيل ...

وبعث اليه يوماً فجاءه ، فدعاه الى طعامه ، فأبى ان يوآكله ؛ فقال معاوية : يا ابا ذر ان الاغنياء يتذمرون منك أنك تثير عليهم الفقراء . فأجابه ابو ذر انني اعمل بكتاب الله وسنة رسوله ؛ فانهي عن جمع المال من عرق الفقراء ومن دمهم ، وكنزه لتبذيره في سبيل الشهوات . واحث الناس على انفاق المال في سبيل الله . اي في سبيل استصلاح الناس ، وخيرهم ، وفي سبيل المنفعة العامّة ، ولمصلحة المجتمع العليا . ولعلك لا تجهل ذلك ، وان تجاهلته. قال معاوية : اني آمرك ان تكف عن دعوتك . فاجابه ابو ذر : والذي نفس ابي ذر في يده ، لن اكف عما انا فيه حتى توزع الاموال بالقسط على الناس كافة .

فطلب معاوية منه ان يغادر مجلسه ، ثم نهى الناس عن مجالسته . وكان طبيعياً ان لا ينتهوا . وراح ابو ذر كل يوم يخطب بالوافدين على معاوية المنتظرين على باب قصره ، ويقول : « اللهم العن الآمرين بالمعروف التاركين له ؛ اللهم العن الناهين عن المنكر المرتكبين له . »

فضاق معاوية به ذرعاً ، وامر يوماً ان يدخلوه عليه ، فقال له : يا عدو الله وعدو رسوله : تأتينا كل يوم فتقول

ما تقول ، اما اني لو كنت قاتل رجل من اصحاب محمد من غير اذن امير المؤمنين عثمان ، لقتلتك .

فاجابه ابو ذر في لهجته المتميزة بالقوة والهدوء : ما انا بعدو لله ولا لرسوله . بل انت وابوك عدوان لله ولرسوله اظهرتما الاسلام نفـــاقاً وابطنتما الكفر ! وكاد يثور غضب معاوية لهذه الصدمة العنيفة ، ولكنه ملك نفسه ؛ وقال مهدداً : يا ابا ذر ، حذارِ فلن انهاك عن شيء بعد اليوم ...

فاجابه ابو ذر في عناده بالحق ، وشجاعته المطمئنة . أتهددني ! لقد علمتَ ان التهديد لا يخيفني ؛ وخرج متثاقلاً ، لا يلتفت اليه . وفي يوم جمعة ، بعد هذه المشادة العنيفة ؛ بين ابي ذر ومعاوية ؛ صعد معاوية المنبر يخطب في الناس قبل الصلاة ، فقال في ما قاله : « انما المال مالنا والفيء فيئنا ؛ فمن شئنا اعطيناه ، ومن شئنا حرمناه » وكانت غلطة لمعاوية ، فادحة مثيرة ، ولا سيما بعد الذي كان قد بدأ يسري في النفوس من روح الثورة التي اوشكت ان تنفجر بها الصدور ؛ فرد عليه من اقصى المسجد رجل من عامة الناس ، وبصوت يتهدج بالغضب والتحدي : « بل المال مالنا نحن ، والفيء فيئنا . فمن حال بيننا وبينه ،

حاكمناه الى الله بأسيافنا ، قالها واقفاً وهو يغرس في معاوية نظره ، ويشمخ في وجهه بانفه . فمالت اعناق المصلين كلهم اليه ، وضاق جو المسجد بهمهمة تنذر بالخطر المداهم .
وفتح الخطر المداهم هذا ، في الحال ، على معاوية ، باب الحيلة ، فابتسم للرجل وقال : ايها الناس ، ان هذا الرجل احياني ، احياه الله . فقد سمعت رسول الله يقول : سيكون بعدي امراء يقولون ولا يُرد عليهم ، يتقاحمون في النار كما تتقاحم القردة »(1) . وامرع معاوية بعد الصلاة الى قصره يستخفي ضمن جدرانه ، وفي نفسه من الغيظ والقلق ما تبدّى واضحاً على سحنته ؛ وهو مقتنع اكثر ما يكون الاقتناع ، ان ابا ذر هو الذي تكلم في نفس ذلك الرجل ؛ وان هذا الكلام ، ضرب من زمجرة الثورة في صدر السواد من الشعب ؛ اذا هو لم يتدارك امرها بالتخلص من ابي ذر ؛ فالثورة متفجرة ، ما في ذلك من ريب .

وعقد معاوية مجلساً من بعض اهله ، وكبار خاصته ، واطلعهم على ما حدث في المسجد ؛ وعلى ما يدور في خلده من امر ابي ذر ؛ فوجموا ذهولاً وتحسباً ونقمة ؛ ثم انفجر

---

1) ابو ذر الغفاري ص - ١٦ - لعبد الحميد جودة السحار .

واحد منهم يقول . سأكفيك أمره . قال معاوية : اعتقد ان الشدة معه لا تجدي . فقال الرجل سنرى . وانطلق ، مسرعاً الى منزل ابي ذر وطرق الباب بعنف ، ففتح له ابو ذر وتفرس فيه فلم يعرفه ، فقال له ماذا تريد ؟ خيراً ان شاء الله . قال الرجل بل شراً ، او تنتهي عن مهاجمتك معاوية وتحريض الناس عليه . قال ابو ذر انما ادعو معاوية الى كتاب الله وسنة رسوله ؛ والى ما فيه الخير للمسلمين وله نفسه ... فقال الرجل ان لم تنته فانك لن تمشي على الارض بعد اليوم ...

وما استغرب ان يكون ابو ذر قال للرجل ، في هدوء واطمئنان ، وشيء من السخرية : وعلى اي شيء امشي اذن ! أو ما هو في هذا المعنى . فقال الرجل احذر يا ابا ذر . قال ابو ذر ومما تحذرني ؟ أمن معاوية ! ومعاوية عبد من عبيد الله يُغضب الله كل يوم ، وانا اسعى في مرضاته . حذرني من غضب الله ان استطعت ؛ فانا لا اخاف الا الله . ام تحذرني من القتل ؛ والقتل احب الى نفسي ، في سبيل الله ، من الرضى بسياسة معاوية واصحابه ! قال الرجل : الا تثوب الى شدك يا ابا ذر . قال انا اعمل ما

اعمل واقول ما اقول برشدي ، ووحي ضميري ؛ وبهدي من الله . ولن انكص على عقبي او انثني ، الا ان يُنصف معاوية المحرومين والفقراء ، ويُنفق الاموال التي يجبيها من المسلمين واهل الكتاب ، في سبيل المسلمين واهـل الكتاب جميعهم ؛ في سبيل المصلحة العامة ، والخير العام .

لقد تحطم سلاح التهديد والوعيد ، على صخرة الايمان ، وعظمة النفس ، عند ابي ذر . فليجرب « سمسار » معاوية سلاح الوعد والاغراء . الم يجهل معاوية نفسهُ قدر نفس ابي ذر ، ومبلغ ترفع هذه النفس عن حطـــام الدنيا ، وتعاليها عن كسب رضى الحكام ، وكسب الاموال ، بالسكوت على عبث الحكام بمصلحة الشعب ، وجور الحكام على الضعفاء والفقراء من ابناء الشعب ، فطبيعي ان يكون « سمسار » معاوية اكثر منه جهلاً لحقيقة نفس ابي ذر ، وابعد امعاناً في العمى عن قيم الوجود تتجسد في ابي ذر .

وفكر الرجل « السمسار » في استعمال سلاح الاغراء ، فقال لابي ذر : يا ابا ذر ان لدى معاوية من الاموال قنـــاطير مقنطرة ، اؤكد لك انه يضع منها بين يديك ما تشاء .

وفي هدوء عجيب وعظمة وادعة اصيلة ، طبيعية غير متصنّعة ، في نفس ابي ذر ، حطم ابو ذر سلاح الاغراء ايضاً بين يدي معاوية وسمساره !

وعاد السمسار الجاهل المجرم الحقير الى سيده ، وهو اعمق دهشة لاحتقار ابي ذر اموال معاوية ، منه لاستخفاف ابي ذر بالقتل !

عاد وهو يتمتم : غريب امر هذا الرجل ! انني ما ادري والله ما خطبه !

وفي اليوم الثاني لفشل معاويه « وسمساره » مع الثائر المؤمن المصلح الراشد ؛ كتب معاوية الى الخليفة عثمان ، يطلعه على ثورة ابي ذر ، ويتخوف عاقبة امره ؛ ثم يقول : ان كان لك باهل الشام حاجة ... فانقذني من ابي ذر . فكتب اليه عثمان : أن ارسل ابا ذر اليّ ، ودار الشام ... ولكل حادث حديث .

بين عثمان وأبي ذر

ما ان بلغ كتاب الخليفة عثمان ، الى معاوية ، حتى اسرع في الحال الى « نفي » ابي ذر الى المدينة ؛ بعد ان كان « نفاه » عثمان من المدينة الى الشام . وقد عامل الذين رافقوا ابا ذر « يخفرونه » الى المدينة ؛ معاملة ملؤها القسوة والحقد والحقارة ؛ مع انهم داخلون في الفئات التي يدافع ابو ذر عن حقوقها ، ويشقى في سبيل اسعادها . وقد يخفف من وقع هذه المعاملة على الانفس — ان يكن هناك ما يخفف من هذا الوقع — ان الخمسة الذين رافقوا ابا ذر « يخفرونه » لم يكونوا عرباً . وكانوا من الصقالبة . وقد حز في نفس ابي ذر وعصر قلبه ألماً ، ان يلقى كل هذا الاضطهاد والبلاء ؛ ليس الا لانه يدعو الى الحق والخير ، والى العدل في الناس والانصاف . ولكنه تذكر وهو يقطع تلك السهول والقفار ان رسول الله قال له يوماً : يا ابا ذر سيصيبك بلاء بعدي . » وانه سأل الرسول : أفي الله ذلك البلاء يا رسول الله ، فاجابه الرسول نعم . فقال له :

مرحباً بالبلاء في سبيل الله . فآست الذكرى نفسه وبلسمت جراح قلبه ، وبعثت فيه قوة علوية عـارمة ، اطمأن لها قلبه الكبير ، وسكنت لقدسيتها نفسه الكريمة النقية الصافية .

وبلغ الركب المدينة ، وأدخل ابو ذر على عثمان ، وكان في مجلسه علي ، ومعه نفر من خيار المسلمين ، فاساء عثمان استقباله ؛ وقال له ما لاهل الشام يتذمرون منك ، ويشكون تدخلك في ما لا يعنيك من شؤونهم ! قال ابو ذر ليس في الشام من يتذمر مني ويشكوني . الا ان يكون عاملك وابن عمك معاوية وصحبه ، الذين يكنزون الذهب والفضة ويحتكرون ارزاق الناس ؛ ويعيدون انشاء طبقة « ارستقراطية » تجور على سواد الشعب وتعبث بحقوق الفقراء والضعفاء ، وقد انكرت هذا على معـاوية وصحبه ، ومن اليهم من اعوان من الاغنياء واصحاب الحظوة ؛ فان هؤلاء جميعهم يتعاونون على الباطل ، ويتنكبون سبيل الحق . فقـاطعه عثمان ، وصرخ فيه كذاب . فقال ابو ذر في هدوء الصادق الجريء المطمئن : لقد علمتَ انني لا اكذب . وانني ما كذبتُ قط .

وتحول عثمان الى شهود مجلسه ، وقال : اشيروا عليّ

في هذا الشيخ الكذاب ، اقتله او انفيه من ارض الاسلام !
فقال علي : اشير عليك بما قاله مؤمن آل فرعون : « فان يك كاذباً فعليه كذبه . وان يك صادقاً يصبكم بعض الذي يعدكم . ان الله لا يهدي من هو مسرف كذاب. »

على اني سمعت رسول الله يقول : « ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء من ذي لهجة اصدق من ابي ذر . » فغضب عثمان وقامت بينه وبين علي مشادة عنيفة . ولكن علياً ما كان ليبالي بامر ، مهما يكن ، حينما يقول ويعمل في سبيل الحق ، ومتى يعمل علي او يقول في غير سبيل الحق . !

فسكت عثمان على مضض ، ولكنه حظر بعدها على الناس ، ان يكلموا ابا ذر او يجالسوه ؛ وهدد بالعقاب من يستفتيه ، ولكن الناس ازدادوا التفافاً حول ابي ذر ، واقبالاً على استفتائه ، والعمل بفتاويه .

وخطر لعثمان ان يسترضي ابا ذر باللين والاغراء ، ما دام التهديد والشدة لا ينفعان فيه ، فبعث اليه يوماً بمائتي دينار مع اثنين من مواليه ، واوصاهما ان يلينا له جناحيهما وان يقولا : عثمان يقرئك السلام ، وقد بعث

اليك بهذه الدنانير تستعين بها على قضاء حاجاتك . فسأل ابو ذر : أهو عطائي من بين اعطية المسلمين ؟ قالا لا . قال : انما انا واحد من المسلمين يسعني ما يسعهم . فلا حاجة لي في هذا المال ، ردوه اليه . قالا : انه يقول لك ان هذا من ماله الخاص ، وانه والله الذي لا اله الا هو لم يخالطه حرام . قال ابو ذر ولِمَ يعطيني من ماله الخاص ! انني لا اقبل من ماله الخاص عطاء . وهل يستطيع ان يسع المسلمين ، الا بيت مال المسلمين ، توزيعاً في عدل وانصاف . ردوا هذا المال الى عثمان ، فردوه اليه . وحاول عثمان مثل هذه المحاولة مرات ، فما اجدته هذه المحاولات شيئاً . وارسل اليه يوماً مع عبد له مائة دينار ، وقال له ، ان قبلها فانت حر . فسارع هذا ينشد حريته ... ويلح على ابي ذر في قبولها ، فأبى . فقال له يرحمك الله يا ابا ذر ، اقبلها فان في قبولكما عتقي . قال ابو ذر — وقد فطن لتدبير عثمان ، وآلم الموقف نفسه ، ايلاماً شديداً — : يا بني ان يك فيها عتقك فان فيها رقي . وابى ان يقبلها .

وظل عثمان رغم هذا كله ، يخالج نفسه الامل في قدرته

على استرضاء ابي ذر باللين والحسنى ، فبعث اليه يوماً ، فما ان اخذ مكانه من المجلس ، وكان فيه كعب الاحبار ، ونفر من المسلمين حتى بادره عثمان بقوله : يا ابا ذر ، ما نريد لك الا الخير ؛ أفلا تتحول عن نهجك ، وتكف عنا لسانك . قال ابو ذر ، ليس نهجي الا من اجل الخير ؛ خيرك يا امير المؤمنين ، وخير المسلمين كافة ؛ فلا تستغشني . قال عثمان . يا ابا ذر ما استطيع حمل الناس على الزهد . فقال ابو ذر : اعرف ذلك وليس هذا ما اريد . وانما الذي اريده واسعى في سبيله هو انصاف الفقراء والضعفاء ، من المقتدرين والاغنياء . ونشر العدل في الناس اجمعين ، وبذل اموال بيت المال ، في غير اسراف ولا تبذير ، في سبيل خير المجتمع واستصلاحه ؛ وليس في سبيل افراد وأسر معينة ... وفي سبيل السلطان والوجاهة والشهوات. فقال كعب الاحبار ، من ادى الفريضة فقد قضى ما عليه ؛ وليس في كنز المال من تجارة ، من ضير . فغضب ابو ذر ولطمه لطمة شديدة وقال له لقد كذبت . ليس لغير بيت المال ، ان يكنز المال ؛ وذلك لانفاقه في سبيل الخير العام ، ومحاربة الفقر والاستثمار ، ولتوطيد اركان الدولة ،

وتوفير منعتها ، لتقوى على حمل الرسالة التي وضعها الرسول بين يديها ؛ والتي حمل اعباءَها في حياته ، وحملها الخليفتان الراشدان من بعده .

وكبر الامرُ على عثمان فلم يقو على احتماله ، واعلن ارادته بابعاد ابي ذر ؛ فقال ابو ذر والى اين . قال الى حيث تشاء . قال ابو ذر ساخرج الى مكة . قال : لا . قال : فالى الشام . فقال عثمان انما جئت بك من الشام لانقذها منك ؛ أفأردك اليها ! قال ابو ذر : الى العراق قال : لا . قال : اذن فالى مصر . قال عثمان : ولا الى مصر ؛ فاختر غير هذه البلدان . فقال ابو ذر ، وكاد يفقد صبره ، والله اني لأعلم ان في نفسك مني لأمراً ، ولستَ بتارك لي ان اختار ، فابعدني الى حيث تشاء . فقال عثمان اني مبعدك الى البادية . قال ابو ذر – ولعله قالها في شيء من الدعابة والمرارة – فاصير بعد الهجرة اعرابياً !!

ودعا عثمان ، مروان بن الحكم ونفراً من بطانته ، وامرهم ان يخرجو ابا ذر الى الربذة . ونهى الناس عن ان يشيعوه ؛ وبلغ الخبر علياً فأثار شجونه . وقيل انه بكى ؛

وقال في دهشة وغضب : أهكذا يُصنع بصاحب رسول الله ! الرجل الذي ما اظلت الخضراء ولا اقلت الغبراء اصدق منه !! لا حول ولا قوة الا بالله . ونهض علي ومعه اخوه عقيل ، وولداه الحسن والحسين ، وفريق من اصحابه وسارع الى تشييع ابي ذر . واخذ الحسن يواسي ابا ذر ويُبدي له من عطفه وتقديره . فدنا منه مروان وقال له الا تعلم ان امير المؤمنين نهى عن مكالمة هذا الرجل وتشييعه ؛ فغضب علي من هذه الوقاحة غضباً شديداً ؛ وضرب بالسوط جبهة راحلة مروان وانتهره : تنحَّ اخزاك الله الى النار .

وتنحى مروان !

وودع علي ورفاقه ابا ذر ، مواسين مشجعين ، ولم يملكوا نفوسهم فبكوا ، وبكى هذه المرة ، ابو ذر ، ايضاً ..

وتسامع الناس في جزيرة العرب بما نزل بأبي ذر من بلاء فاستنكروا اعمال عثمان ، وذهلوا له وتفاقم في صدورهم السخط على عثمان وجماعته ؛ هذا السخط الذي سينفجر يوماً ، ثورة تطيح اول ما تطيح ، بعثمان .

أبوُ ذر في المنفى

عاش ابو ذر في « الربذة » ومعه زوجه وابنه وابنته ، في خيمة ممزقة نصبها غير بعيد ، من كثيب من الرمل ، في ذلك البلقع الموحش ؛ لا انيس لهم فيه ، سوى غنيمات قليلة يتبلغون بما في ضروعها من لبن ؛ واحياناً بما ينبت في الكثبان من نبات ، مثل عنب الثعلب وغيره . وظلوا كذلك حينا طويلا يشد عليهم العذاب والبلوى . والصحابي الجليل الثائر المؤمن ، تكاد تتقطع احشاؤه أسى ، وصبراً على الاسى ؛ يرى اهله يتقلبون على جمر البؤس والجوع والمرض ، فيدمي قلبه ، وتأخذ بحلقه غصص من الالم والحزن ، تكاد تخنقه ، ويهم ان ينفجر بالبكاء ، فيسيل قلبه وتسيل نفسه كلها ، دموعاً تخفف من حُرقته ؛ ولكنه يُشفق على زوجه وولديه ، اكثر مما يُشفق على نفسه ، فيغالب هذه الغُصص ، ويقوى — على حساب جسمه الذي وهن حتى ليكاد يحطمه الوهن — على حبس دموعه .

وكان يُلهب العذاب في نفس ابي ذر ، ويزيد في

احتدامه ، أنه « انسان » يحب الناس ، ويحس آلامهم وتشغل هذه الآلام نفسه وعقله وفكره ؛ فهو من اجل المتألمين والمعذبين في الارض ، حمل الى « المنفى » حيث يتألم ويتعذب ، ويرى زوجه وولديه يتألمون ويتعذبون بين يديه ؛ ولا ينسيه عذابه وعذابُ عائلته ؛ اولئك المعذبين ، فتطغي هذه الاحساسات كلها مجتمعة ، على ذاته النقية المصفاة ؛ فتكاد تحطمها ، وتذهب بها شعاعاً .

اضف الى هذا كله العذاب من اجل الفكرة ؛ فكرته في القضاء على اسباب الشقاء والعذاب ، يصيبان الناس ؛ الشريرين منهم ، والخيرين ايضاً ... كيف تتحقق ، ومتى تتحقق !

ورغم هذا كله ، فقد ظل الصادق والثائر ، والصالح والانسان : ابو ذر ، معتصماً بالصبر . واخذ الموت يدب في غنيماته ؛ والمرض يفتك بولديه ، فينتزع الموت من بين يديه ابنته ، ويهدد بانتزاع ابنه مرضاً من الجوع ؛ فتستبد به حالة من تلك الحالات النفسانية الطاغية ، يتصارع فيها اليأس والامل ، والخيبة والرجاء ، والسكينة والغضب ، والاستكانة والتمرد ، والاقدام والاحجام ، والملاينة

والمخاشنة ، وعزة النفس وذل الاستسلام ، والنقمة من هذا المجتمع ، أنه سادر عابث جبان ؛ والاشفاق عليه والرحمة به ، أنه ضعيف جاهل ، مغلوب على امره ؛ وتفطن زوجه الى حالته هذه ، وتدرك ما يقاسيه من عذاب ، رغم تصبره وتجلده ، ومحاولته اخفاء ما يعتلج في صدره ، اشفاقاً على ضعفها ، ورحمة بها وبابنها المسرع الخطى الى الموت ، فتحاول ان تثير في نفسه فكرة التوجه الى الخليفة يطلب من بيت المال حقه من العطاء ، يخفف به عنهم شيئا من شدة البؤس والعذاب ؛ حقه وليس شيئاً غير حقه الذي نص عليه كتاب الله .

وفي سبيل زوجه هذه الضعيفة البريئة المعذبة ، وفي سبيل ابنها الذي يعركه الجوع والمرض ، ليوسلاه الى القبر ؛ في سبيل هذين الكائنين البريئين اللذين لم يطق الشيخ الصالح الثائر الانسان ، ان يموتا بين يديه جوعاً كما ماتت ابنته من قبل جوعاً ؛ انطلق ابو ذر الى المدينة ، ودخل على الخليفة عثمان ، فراع الخليفة منظره ، ومن شهد مجلسه ، وبينهم حبيب بن مسلمة . راعهم ما كان يبدو في وجهه وفي جماع هيئته من آثار عميقة واضحة للبؤس والعذاب وقوة الاحتمال المتهالكة . وحدق ابو ذر في الخليفة وطلب اليه في لهجة وادعة ،

ولكن في هدوء وعزم ان يؤدي اليه حقه ؛ حقه الذي فرضه له كتاب الله ، لعله بذلك ينقذ من الموت جوعاً ، نفوساً بريئة ، هو الذي ارسلها الى « المنفى » في الارض البلقع القفر ، فلم يرد عليه عثمان ، واشاح بوجهه عنه ... فانبرى حبيب بن مسلمة يقول : يا ابا ذر ، لك عندي الف درهم وخمسماية شاة . فقال ابو ذر : لست في حاجة الى اموالك فاعطها غيري ان شئت . وانما اطلب حقي في بيت المال . حقي المفروض في كتاب الله . ودخل علي المجلس في تلك اللحظة فقال له عثمان : الا تكف عنا سفيهك هذا ؟! قال اي سفيه ؟ قال « ابو ذر » . فقال علي : « والله انه ليس بسفيه . فقد سمعت النبي يشبه زهده وتواضعه وحياءه ، بما كان لعيسى بن مريم من زهد وتواضع وحياء . »

وانطلق ابو ذر من المجلس ، لا يلوي على احد . ولا يستجيب الى احد من الذين قاموا ينادونه من شهود المجلس ؛ وراح يغذ السير الى الرَبذة ، حيث تنتظره زوجه وينتظره ابنه ؛ وفي نفسه ، ما ليس يعلمه الا الله وحده ؛ من ضيق ومن شدة ؛ ومن هم واسى ولوعة . واغلب الظن انه

لم يفكر في ما ينبغي له ان يصنعه لينقذ زوجه وابنه من الجوع، ويخفف عنهما وطأة البؤس والعذاب. وانه استسلم للقضاء والقدر؛ يفعلان ما كان مقدراً لهما ان يفعلاه. فقد يموت ابنه معذباً وقد تموت زوجه معذبة، وقد يموت هو ايضاً معذباً من الجوع - وموته هو اقل ما كان يعنيه من امر الموت في حالته تلك - فليس بعد مسعاه لدى عثمان، من اجل زوجه وابنه؛ من مسعى بين يديه. وان ذلك كله على ما فيه من بلاء وايجاع طاحنين، قد يذهبان بعقله ان لم يذهبا بعقله وجسمه معاً، اهون عليه في طاعة الله، وفي الوفاء لعقيدته وايمانه، مما دعاه اليه معاوية « وسمساره » في الشام؛ وعثمان وجماعته في المدينة.

وواجه ابو ذر خيمته في الربذه؛ فتوقف لحظة؛ ثم راح يعدو سريعاً فدخل الخيمة، فاذا امرأته الى جانب ابنها المسجى، تبكي في حُرقة وهدوء، فادرك انه قد مات. وكانت الصدمة، بعد الذي وقع له، فوق ما تقوى الطبيعة البشرية على احتماله، فبكى هو الآخر، في لوعة وصمت، بكاء موجعاً مهدماً، ثم قام وكفن ابنه كيفما اتفق، وحفر حفرة اودعها جثمان ابنه ومسح على

تراب قبره في حنان ورفق وهو يقول : اني لارجو لك يا ولدي ، من الله الرحمة والمغفرة ، فقد كنت كريم الخلق بارا بالوالدين .

وعاد والام الفاجع الوله ، الى خيمتها الموحشة ، وقد حنت الفاجعة — وهما في ما هما فيه من بؤس وعذاب — ظهريهما ، وجعلت منها شبه خيالين ليس فيهما الا ذماء .

وظلا يومهما واليوم الذي تلاه لا يأكلان ؛ ذلك ان لم يكن عندهما ما يأكلانه . فقال ابو ذر قومي بنا الى ذلك الكثيب ، نطلب ما نقتات به من نبات ، فقاما الى الكثيب فاذا هو لم يبق فيه من شيء سوى ... الرمل !.

وانقلب ابو ذر وزوجه الى خيمتها . صامتين ، واويا الى الخيمة ، والبرد ينال منهما ، ما ينال منهما الجوع والاعياء . فجلس ابو ذر وكأنه هوى الى الارض ، فالتفتت اليه زوجه فاذا هو يرتجف ، وقد تندى جبينه بالعرق ، رغم البرد ؛ وبدت عيناه وكأن النور فيهما اخذ ينطفيء . فراع امرأته منظره المؤلم المحزن وراحت تبكي بكاءً مراً فقال ما يبكيك : قالت مالي لا ابكي وانت ، بعد صحبتك رسول الله عشر سنوات ، وعملك بكتاب الله وسنة

رسوله ، وجهادك في سبيل الخير والحق ، يخرجك الخليفة الى هذه الصحراء ، فيموت ولدانا فيها جوعاً واراك انت الآخر تموت بين يديّ وليس عندنا ما يصلح ان اجعل منه كفناً لك . ولست ادري ما الذي سيحل بي في هذا القفر الموحش بعدك . فنفذت كلماتها الى صميم روحه وآلمته اكثر مما كان يؤلمه موت ولديه ، ومعرفته انه هو ايضاً ميت بين يدي هذه المرأة الوفية النقية الصبور ، وقال لها دونك الكثيب ، وانظري لعل في ما يقع عليه بصرك من هذه الفلاة ، ركباً ، تقولين لهم ان ابا ذر صاحب رسول الله قد قضى نحبه ، فتأخذهم الرحمة بك وبي ، فيعينونك على تكفيني بهذه الرمال . وراحت ترسل نظرها في آفاق الصحراء فاذا هي تبصر على بعد ، ركباً مقبلا ، فألاحت بثوبها ، فلم تمض دقائق الا والركب محيط بها ؛ يقولون لبيك يا امة الله ، ما شأنك ؟ قالت : أمرؤ من المسلمين قضى تكفنونه ، فتؤجرون فيه . قالوا ومن هو ؟ قالت انه ابو ذر صاحب رسول الله . فذهل القوم واستنكروا ان يموت صاحب الرسول في هذه الفلاة . وقالوا لها ان الله يكرمنا بهذا . ووددنا — لو استطعنا — ان نفديه بآبائنا

وامهاتنا . واسرعوا الى ابي ذر ، فلما دخلوا عليه قال لهم: ابشروا فاني سمعت رسول الله يقول لنفر ، انا منهم : «ليموتن رجل منكم بفلاة من الارض يشهده عصابة من المؤمنين . » وليس من اولئك النفر الا وقد مات في قرية او جماعة . ولكنني انشدكم الله ان لا يكفني رجل منكم كان اميراً ، او ولي لصاحب السلطان عملاً اياً كان . فنظر الواحد منهم الى الآخر في كثير من الحزن وظلوا ساكتين ؛ الا فتى من الانصار قال : والله يا عم انه لم يكن لي من ذلك من شيء ؛ وان لدي ثوبين من غزل امي حاكتهما لي ؛ لكي احرم فيهما . قال ابو ذر انت تكفنني .

واغمض الرجل الصالح الثائر على الظلم ، وعلى الحرام ، وعلى كل منكر ، عينيه . وما هي الا لحظات حتى اسلم روحه لله ، في طمأنينة وهدوء ؛ فغسله القوم وكفنوه ثم صلوا عليه ، ودفنوه .

ووقف الفتى الانصاري على قبره فقال : اللهم هذا ابو ذر ، عبدك المؤمن الصالح العابد الزاهد ، صاحب رسولك الامين ، والعامل بكتابك الكريم والثائر على الظلم والظالمين . عاهدك وصدق ما عاهدك عليه ؛ فلم يخلف ولم يبدل

فحُرِم وظُلم ، ليس الا لانه يعمل للحق وللخير. اللهم فاحرم من حرمه وجاز من ظلمه . اللهم وثبتنا على الحق كما ثبت ابا ذر . وارحمه يا ارحم الراحمين . »

***

ان هذه النهاية في عالمنا هذا ؛ بعواملهـــا والبواعث عليها ، هذه النهاية الرائعة يتجسد فيها طراز من الاستشهاد الهادىء المطمئن ؛ الممعن في الاستشهاد – ان صح التعبير – هذه النهاية يتجسد فيها طراز من البطولة العارمة الفاتنة ، النادرة النظير ، تجعل من ابي ذر الزاهد الوديـع ، عظيما من عظماء القمة في الارض ، وفي .. السماء .

وانها لتجعل في نظري ، من الذين حرموه وظـــلموه واضطهدوه ، عارفين او غافلين ، مهما يكن من امرهم ، خفافاً مساكين ، في ميزان العظمة الحق ؛ ميزان السماء .

اما زوج ابي ذر ، تلك الامرأة الفاضلة النقية الوفيـــة الصبور التي قويت على مشاطرته البؤس والحرمان والعذاب ، بدون اي تذمر ، احتراماً لايمانه ، ومبادئه ، ان لم اقل ايمانا بايمانه ومبادئه ؛ فانهـــا تنهض شاهداً على مبلغ ما تستطيعه المرأة من عمل انساني جليل ، ومن مؤاساة بنّاءة

تعصم الايمان ، وتولج النور في الظلام .

الثورة بعثمان ومقتله

لم يمض حين طويل على « استشهاد » ابي ذر حتى كانت الثورة التي كان هو اول من غرس بذورها الصالحة الخيرّة، وتعهدها، قد عمرت بها الصدور، وغصت بها النفوس؛ ذلك ان عثمان استمر في نهجه الذي كان يكافحه ابو ذر، من مثل انفاق ما « يُكنز من الذهب والفضة » على رؤوس بني امية، وتحكيمهم في مقدرات الشعب ومده لهم في النفوذ والسلطان، في الشام والعراق ومصر؛ من مثل اعراضه عن المتظلمين والضعفاء والفقراء في كل مكان، فانطلقت الثورة في سرعة وعنف، وراح الثائرون يجهرون بلعن عثمان ويطلبون خلعه، فحاول عثمان ان يهدىء النفوس الثائرة، وان يبعث فيها الاطمئنان الى انه سيعاقب ولاة الامصار، وينتصف منهم للشعب المضطرب؛ وان يعطي كل ذي حق حقه في المال، وفي العدل - ويزعم البعض انه لم يكن مخلصاً في محاولته ويستشهدون على هذا بقصة الغلام الذي امسكوه مرسلاً من عثمان الى عبد الله بن سعد عامله

على مصر — . وعلى كل حال فان محاولته جاءت متأخرة جداً ، ومشبوهة جداً ؛ فلم يكن منها ، الا انها زادت في احتدام الثورة في نفوس الثائرين ، وانتهت بقتلهم اياه ، في حكاية طويلة ليس بسطها من اغراض هذا الكتاب ؛ رحمه الله .

والذي يعنينا الآن من هذا كله ؛ هو انه اذا كان عثمان على جلال قدره ، وعلى صادق ايمانه بكتاب الله ، وعلى ما بدا منه ، من سخاء وجود في فترة معينة ، في سبيل الاسلام والمسلمين ، وعلى ما كان يتمتع به من سلطان للخلافة وناهيك به ، يومذاك ، من سلطان ؛ يجمع الى سلطة رئيس الدولة ، سلطة خليفة رسول الله ؛ وكانت ما تزال ، ذات حرمة فائقة ، وهيبة في النفوس عميقة ؛ مما لا يطمع في عشر معشاره روساء الدول العربية اليوم ، من ملوك وغير ملوك — وهم عقلاء — لم تعصمه هذه المنزلة الرفيعة المنيعة العزيزة ، من غضب الثائرين . ولا هي قويت على الحيلولة بينه وبين الموت قتلا بايديهم ، فما يكون شأن اصحاب السلطان اليوم ، من ملوك ورؤساء ، اذا هم لم يعدلوا ؛ ولم يعملوا للحق والحرية والخير ؛ واذا هم نادوا

في « كنز الذهب والفضة » ولم ينفقوها في سبيل الله ؛ على النحو الذي كان يفهمه ابو ذر ؛ اي في سبيل خير المواطنين جميعهم – كما نقول اليوم – وفي سبيل سعادتهم وطمأنينتهم ، واستصلاح شؤونهم كافة . وفي سبيل منعة الدولة وصيانتها ، من دون ما اسراف ولا تبذير ؟ ما يكون من شأنهم ، اذا هم تمادوا في انفاق المال في سبيل ملذاتهم وشهواتهم وتوطيد سلطانهم هم ، والمال سواء أسموه مال الله ، او غير ذلك فهو على كل حال ، ليس مالهم وانما هو مال الشعب ، ويجب ان ينفق في سبيل استصلاح الشعب ، وخيره وطمأنينته وسعادته ، وفي سبيل توطيد سلطان الدولة على اسس راسخة من الحق ، ومن الحرية العاقلة الخيّرة ، ومن العدل الصارم الشامل ؛ وليس في سبيل سلطان الأمراء والافراد ... وقد رأينا ما كان من شأن عثمان وهو – على كل حال – اقوى منهم وخير منهم ، ونرى اليوم ما هو شأن من تمور نفسهم بالايمان والرجولة ، وكبرياء الشرف ؛ وتضطرب في رؤوسهم فِكرٌ ضخمة في الحرية والحق ، وفي عز القومية ، وعز الانسانية ايضاً ، ويقوون على حمل هذه الفِكر ، من اهل المعرفة والرأي في الوطن العربي ؛ وان يكن ابو ذر خيراً منهم جميعاً ،

فماذا سيكون من شأن هؤلاء واولائك في مثل هذه الحال ؟!

في الامر ناحيتان : ناحية الاعتبار من جهة ، وناحية الاقتداء من جهة أخرى . ومن هنا كانت كلمة الـ « اهداء » في صدر هذا الكتاب . لكي يعتبر اهل السلطان ، ويقتدي دعاة الحرية والحق من اهل الشرف والايمان .

ومن هنا كلمة الختام ابعثها في ايمـان ويقين وطمأنينة :

ان ابا ذر لم يكن - كما يتوهم البعض من اهل المعرفة والدعوة الى التقدم اليوم - يمثّل التأخرَ او الجمود ، حينما كان يدعو الى الاستمساك بكتاب الله وسنة رسوله ، والى نصرة المظلوم والضعيف والفقير ، والى توزيع مـال الدولة على « الرعية » بالقسط ، فتزول الفوارق الفاحشة بين مُواطن ومواطن . وتذهب الى غير رجعة ، القلة « الارستقراطية » التي تتحكم بارزاق الناس واعناق النـاس . وان ابا ذر اذا كان هو نفسه زاهداً يحب الزهد ، فهو لم يكـن يفرض الزهد او يطلب فرضه على المجتمع ، وانما الذي كان يطلبه ويكافح في سبيل فرضـه ، هو تجنب الاسراف والتبذير ، والترفع عن الاستمتاع بالملاذ ، واشباع الشهوات البهيميـة بينما الكثرة الغالبة من ابناء المجتمع الذي كان يعيش فيه ،

تشقى وتجوع وتتعذب . الذي كان يطلبه ويكافح في سبيل فرضه ، هو امتناع الحكام واهل النفوذ ، من ظلم الناس واستعباد الناس ، ليس الا لانهم فقراء وضعفاء ، - لانهم يعجزون عن استعباد الاقوياء - وعن اختلاس مال الدولة أي بيت المال ، بعد ان يجمعه الحكام من الناس ؛ من دمهم الابيض ودمهم الاحمر - لينفقوه على انفسهم وذويهم وأسرهم واهل الحظوة عندهم . ولم يكن ابو ذر يجهل ان هذا الكون محكوم عليه ان يتطور ، وان التطور سنة من سننه لا تزول ، وقد شهد هو نفسه تطوراً كبيراً في الوجود العربي في خلال اربعين او خمسين عاماً ، هذه المدة الضئيلة جداً ، وعقل هذا التطور ، واغتبط به ، واعان بوسائله عليه ؛ فمن البديهي ان يدرك ضرورة التطور وحتميته في دورة الزمن ، مبدئياً ، بدون ان يعلم - طبعاً - مدى هذا التطور ، وكيفيته . ولكنه كان يريده تطوراً في نطاق القيم ، ويعتقد انه يجب ان يكون كذلك ويمكن ان يكون . كان يعتقد ان التطور او التقدم يجب ويمكن ان يتم ، بدون سرقة وكذب ونفاق وتدجيل . وبدون فحش وتهتك واستخذاء ، وبدون ان

يظلم الانسانُ الانسانَ ويستعبد الانسانُ الانسانَ . وبدون ان يثري بعض الناس ، او قلة ضئيلة من الناس ، على اكتاف المجتمع الانساني . وليس من العقل ولا من المنطق ان نفرض على ابي ذر معرفة التطور او التقدم الآلي والميكانيكي بعد عهده بما يقرب من الف واربعمائة عام . على اننا لو سلمنا بالمستحيل ، وقلنا بلى ، ان ابا ذر كان يجب ان يعرف ما ينتظر هذا الوجود من تطور وتقدم من الناحية الآلية والميكانيكية ، فهل يسوّغ هذا لنا ان نقر عثمان ومعاوية ومن اليهما على سلوكهم ونهجهم ، في تصريف امور مجتمعهم ، بحجة انهم تقدميون ؟! وان نفضلهم على ابي ذر الذي ثار من اجل الخير والحق والحرية والكرامة ؟ الا اذا نحن نسبنا الى التقدم احط الاعمال واحقرها واشدها ايذاءً للوجود الانساني ؛ وقررنا ان التقدم لا يكون تقدماً ، الاّ اذا قام على هذه الاعمال . ولسنا ، نحن ، في هذا الواد . ونعني بهذه الاعمال ، تلك التي كافحها ابو ذر ، وثار على اصحابها ؛ وهي على سبيل المثال ، وليس على سبيل الحصر : ظلم الاقوياء للضعفاء واستغلال الاغنياء للفقراء . واستبداد الحكام بالضعفاء والفقراء معاً . واستعباد ذوي

السلطان من خلفاء وامراء ، للمستضعفين من عبـــاد الله ؛ وعبودية هؤلاء الامراء والخلفاء للشهوات والاهواء . واعتبارهم اموال الدولة – بيت المال – ملكاً خاصاً لهم ، يسرفون في انفاقه وتبذيره ، على القصور وعلى اللذات ؛ بينا الجهل والجوع والعري والمرض ، تفتك في قسوة بالجمـــاعات . وحتى في العمل الانشائي البنّاء ، كان ابو ذر ، يحارب التبذير والاسراف . ذلك ان العمل الانشـائي البنّاء الخيّر نفسه يُنفق فيه اكثر مما يتطلب ، وفوق ما تقتضيه مصلحة المجتمع ، يتناول الانفاقَ فيه ، الاسراف والتبذير ، فكل ما يُنفق في غير سبيله ، اسراف وتبذير ؛ وفي كل اسراف وتبذير نوع من الاختلاس والسرقة ؛ وابو ذر يحارب في ما يحاربه ، السرقة والاختلاس . ولو وُجـد ابو ذر في هذا العهـد ، لكنا مع ابي ذر على هـذا الاساس ؛ ولـكان معه ، من التقدميين ، اهل الايمان والشرف والرجولة والاخلاص .

رحم الله ابا ذر . ونفح هؤلاء السبعين مليون عربي ، بسبعة مثله . فليس الى مثل محمد بن عبد الله من سبيل .

مراجع الكتاب

تاريخ الامم والملوك — للطبري

الكامل — لابن الاثير

مروج الذهب — للمسعودي

اعيان الشيعة — لمحسن الامين

الطبقات — لمحمد بن سعد

تاريخ الاسلام السياسي — للدكتور حسن ابراهيم حسن

كتاب السيرة — لعبد الملك بن هشام

الاشتراكي ابو ذر الغفاري — لاحمد جودة السحار

ابو ذر الغفاري — لقدري القلعجي

بعض ما قيل في كتب دار الحكمة

الملك سيف

قالت جريدة « الحياة » في نشرتها ٢٩٠٥ المؤرخة في ٢٢ تشرين الاول سنة ١٩٥٥ بامضاء ابن يقظان

ان من قرأ كتاب « اذينة والزباء » الحلقة الاولى من سلسلة « الثائرون في التاريخ » التي تصدرها دار الحكمة باشراف الاستاذ علي ناصر الدين ، لا بد من ان يكون مقيماً على شوق الى مطالعة الحلقة الثانية ، فالثالثة ... فكل ما سوف تنتجه هذه الدار في ميدان التاريخ العربي الذي نستقرئه نحن ، ونكتبه نحن لا الذي تولى كتابته عنا ، حتى اليوم ، ذوو اغراض ، ما هي اغراضنا ، ومصالح ليست مصالحنا ...

وها هي الحلقة الثانية من سلسلة الثائرين تصدر اليوم عن دار الحكمة ، فتروي للاجيال العربية الطالعة سيرة ماضيها المجيد ، في ثورة بطل من ابطال هذه الامة الغنية بالبطولات ، هو « الملك سيف » المصلح الكبير الذي نسج الخيال حول اسمه من الاساطير ما شوه شخصيته وبدل

حقيقة كيانه العقلي والفكري والوطني ... حتى جاءت « دار الحكمة » في محاولتها العلمية الجريئة تجلو هذه الشخصية التي لعبت في تاريخ الوجود العربي دوراً بطولياً رائعاً .

زيد و ورقة

وقالت جريدة « الهدف » في نشرتها المؤرخة في ١٥ شباط سنة ١٩٥٦

كتاب جديد يدور على فذين من اهل مكة هما زيد بن عمرو بن نفيل و ورقة بن نوفل اللذين ثارا – قبل الاسلام – على عبادة الاصنام والعوائد الجاهلية الاخرى غير الانسانية ، ونشدا – في وجه اضطهاد قريش – الاله الاحد فمهدا ، من حيث يدريان او لا يدريان – للاسلام

والبحث مزيج حلو من تاريخ وادب يحمل في ثناياه مزيد دليل على حقيقة مهمة لم ينتبه اليها المؤرخون التقليديون واستهدفت هذه السلسلة من الكتب جلاءها ، هي وفرة الثورات الفكرية في التاريخ العربي ، وثمة حقيقة مهمة اخرى هي قدم هذا الترابط الحيوي والفكري بين الشام والجزيرة العربية .

وقد بدأت هذه السلسلة التي تصدرها « دار الحكمة »

باشراف الاستاذ علي ناصر الدين باذينة والزباء وثنت بالملك سيف وستدور الحلقة الرابعة على جندب بن جنادة .

لقد عرفنا الاستاذ الكبير علي ناصر الدين معلماً في القومية ومجاهداً صادقاً في سبيل الاستقلال والوحدة .

وها هوذا يقتحم ، وفي نجاح لامع ، ميدانين جديدين : اعادة كتابة التاريخ العربي وصناعة النشر .

وسلاحه في الواحد اطلاع مذخور واستشفاف مشرق وادب سائغ ، وفي الآخر همة قعساء .

العرس المأتم

وقالت جريدة « الحياة » في نشرتها المؤرخة ٢٤ شباط سنة ١٩٥٦

« العرس المأتم » مسرحية قوية للشاعر الالماني لبسنك ، نقلها الى العربية الدكتور امين رويحة ، وتولت « دار الحكمة » تحويلهـــا الى قصة محافظة في ذلك على المعنى والروح وعلى الفاظ الحوار ، ونشرتها اخيراً كتاباً في ١٦٠ صفحة .

والمسرحية هذه من اعنف المآسي واعمقها يقترن فيها الواقع التاريخي بالتحليل الدقيق للحالات النفسية ، مما يجعل

منها اثراً جميلاً حيا في اطار من الشاعرية شيق اثير .

طريق فلسطين

وقالت جريدة « الحياة » في نشرتها المؤرخة في ١٩ شباط سنة ١٩٥٦

اصدرت « دار الحكمة » ، اخيراً ، كتاباً للاستاذ علي ابو حيدر بعنوان « طريق فلسطين . »

و « طريق فلسطين » هو رواية تتناول بالدرس والتحليل نفسية الابطال العرب الذين اشتركوا في الجهاد في ثورة ١٩٣٧ وقاوموا الاستعمارين : الفرنسي والانكليزي في ذلك الوقت .

انها المرة الاولى يخرج فيها اديب من ادبائنا عن طريق ادب المراهقة فيتناول القضايا الوطنية في الادب الروائي ، بدلا من وصف الساق والشفاه والحواجب ، ويقدم لنا ادباً يفيض بالوطنية الصحيحة ، ويصف لنا اشخاصاً ممتلئين ايماناً بقضية الوطن العربي العادلة .

هذه خطوة تسجل للاديب الاستاذ علي ابو حيدر ، فيها جرأة وفيها ابداع ، وهي في ذاتها ، ايضاً ثورة على ادب المجون والسطحية والالفاظ البراقة .

قضية العرب

وقالت مجلة الحديث لصاحبها العالم الفاضل سامي الكيالي في الجزء ٧ – ٨ من سنتها التاسعة والعشرين : مؤلف هذا الكتاب الاستاذ علي ناصر الدين من ادباء العرب الذين شغلتهم بحوث القومية العربية عن كل شيء . وقد كتب الكثير من المباحث والمقالات التي تنير الطريق امام النشء العربي لتفهم القضية العربية في شتى ادوارها ، ومختلف ملابساتها ونحن الآن في امس الحاجة الى ادباء مؤمنين كل الايمان ليقفوا سداً منيعاً ازاء تخرصات الشعوبيين الذين لاهم لهم الا الطعن في العرب والنيل من القومية العربية ، والاستاذ ناصر الدين من هذه الصفوة المختارة .

وحبذا لو اهتمت وزارات المعارف في البلاد العربية ، بابتياع نسخ هذا الكتاب وتوزيعه على مكتبات المدارس .

فنشكر « لدار الحكمة » نشرها مثل هذه الكتب

اذينة والزباء

وقالت مجلة « الخابور » الصادرة في القامشلي في الجزء

١٦ - ١٧ من سنتها الخامسة : لصاحبها الاديب المحامي الاستاذ سعيدابو الحسن

هذا كتاب آخر من منشورات دار الحكمة . وهو جديد في دراسة التاريخ العربي القومي . انه يتناول سير الثائرين البارزين في تاريخنا منذ اقدم العصور حتى الآن . انه خير محاولة جرت حتى الآن لاطلاع القارىء العربي خاصة ، والعالم كله عامة على هذه النواحي النبيلة من تاريخ العرب . وقد تضمن في مقدمته الرائعة درساً في الثورة والثائرين يستحق ان ينشر في كتاب ذهبي ، على حدة ، وان يدرّس في المدارس ، لما فيه من تفهم عميق ، صوفي لمعاني الثورة ان كل كلمة منها نور ساطع وهاج يفيض من اعماق النفس المناضلة المؤمنة ، فينير الطريق للمكافحين الاحرار ويحدد لهم المشروع وغير المشروع من اهداف الثورة ، ثم هو يدخل العنصر الانساني الاجتماعي في موضوع الثورة بحيث لا يقتصر على الثورة السياسية ، بل يتناول الثورات الاجتماعية الرامية الى القضاء على كل منكر وكل استئثار وكل فساد ، فتتصف نظرة الكتاب بالشمول والعمق معاً ، مما يتفق وأحدث نظريات الثورة والانقلاب في عصرنا الحديث .

ان دار الحكمة قد اصابت توفيقاً عظيما وفتحت فتحا مبينا باصدارها هذه السلسلة فلها شكرنا وشكر ابناء العروبة اجمعين .

فهرست